8, -

الدكتور أحمد العسال

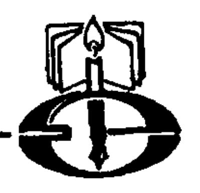
مفاهيم أساسية
فى
فقه الدعوة والتجديد

تحقيق

الدكتور قطب عبد الحميد قطب

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م



دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

ص ب ١٦٣٦

هذا الكتاب

الحمد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسـلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـد: فيـسعدنى أن أقـدم للقراء الأعـزاء هذه الصحائـف الحافلة بالمفاهيم والحقـائق والوقائع التى يحتاج إليها المربون والدعـاة فى تصحيح المفاهيم الإسلامية التى غلط الناس فى تصورها وأساءوا فى تصويرها.

ويكفى هذه المقـالات جلالة أنهـا صـدرت عن قلب غيـور على دينه شفيق على أمـته حاول أن يعالج بصدق ووعى قضايـا حية فى واقع الأمة الإسلامية التى يُنظر إليها على أنها الملاذ والحمى، والتى ينبغى تحريرها من كل ما يشل إرادتها أو فكرها أو يدها.

من أجل ذلك حـرصت على جـمع هذه المـقالات المتـناثرة فى بطون المجلات، ونشـرها -بعد تحـقيـقهـا- فى هذا الكتاب لعلهـا تحقق الفـقه المطلوب وتسدد خطى العاملين فى مجال الدعوة إلى الله.

وجزى الله شيخنا الأسـتاذ الدكتور أحمد العسـال خير الجزاء، وأطال الله بقاءه ممتعـا بالصحة والعافية، ونفـعنا الله وإياه بهذه الكلمات «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

والله ولى التوفيق

دكتور قطب عبد الحميد قطب

ذو الحجة ١٤١٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات وتقضى الحاجات، وتقبل الطاعات، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه، وصفوته من عباده نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وأصحابه، وعلى كل من دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

وبعد

فهذه مقالات بل نفثات قلب، وذوب فؤاد، أجراها الله عز وجل على مداد العبد الفقير فى ميدان الدعوة والتجديد، وهو الميدان الذى أنعم الله به علىَّ منذ كنتُ ناشئا أطلب العلم فى رحاب المعهد الأحمدى بطنطا؛ وقد كان رافد العلم الأصيل، ورافد الممارسة العملية، والمجاهدة اليومية، والتلقى على أصحاب القلوب الكبيرة، والعقول الواعية المستوعبة المجددة؛ مما كان له الأثر البالغ فى التكوين والتربية؛ مما جعلنى أرقب بعين بصيرة، وأتابع بقلق ما عساه أن يقع فيه شباب الدعاة من أخطاء فى الحكم، أو تعجل فى المعالجة، مما يعود بالأثر الوخيم والنتائج الضارة على مسار الدعوة وطريقة البلاغ والتربية.

ومن هنا فهذه الخواطر والأفكار تذكِّر بالمفاهيم الأساسية التى يجب على الدعاة أن يتذكروها، ويجعلوها نصب أعينهم، وأن تصبح رحيقا فى نفوسهم وأفكارهم، مِنْ أهمية أن يُدخل الداعية تجربة الدعوة فى نفسه وحياته، وأن تكون حياته مثالا لما يدعو إليه، وأن يهتم بصلته بالله عز وجل وأن يحذر آفات الهوى والعصبية، وأن يعتصم بحبل الله، وأن يقبل

من الناس ظاهرهم ويكل إلى الله سرائرهم، وأن يأخذهم برفق وحنان وتدرج وألا يعنتهم؛ فإنما الفقيه كل الفقيه من لا يُيَئِّس الناس من روح الله، ولا يؤمنهم مكر الله، وأن يدرك أن الأمة فى حاجة إلى الأخوة الحانية، والوحدة الجامعة، وأن خيرية هذه الأمة دائمة لا تنتهى بما أنعم الله عليها وتفضل عليها، وأن مهمته أن يتبع المنهج العلمى الذى أرساه أسوتنا وقدوتنا ﷺ، وعليه أن يُكَوِّن ملكة الوعى فيمن يدعوهم، وأن يتعهد مَنْ يدعوه كما كان -صلى الله عليه وسلم- يتعهد أصحابه؛ فإن مشكلة أكثر الدعاة اليوم أنهم لا يتعهدون بذورهم ونبتهم، وهذه أصول التربية فى الإسلام، والأمة فى حاجة إلى هذا الطراز من الدعاة الغدّائين الرواحين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والذين سار على دربهم الأئمة الكبار من أمثال الإمام مالك حين تعهد تلميذه الإمام الشافعى.

لقد تطرقت هذه المفاهيم إلى العقبات التى تواجه الأمة، وألقت عليها أضواء كاشفة، وناقشت وانتهت إلى أهمية الانضباط بموازين الشرع فى كل ما نأخذ وندع، وألاَّ نتعجل أمرًا قبل أوانه؛ فالبلاغ والصبر والجهاد والمجاهدة عدة الداعية ومركبه إلى الله عز وجل، وصدق الله:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقد قيض الله لهذه المقالات الأخ الفاضل والداعية الكريم الأستاذ الدكتور/ قطب عبد الحميد قطب، فجمعها مِنْ مظانها، وراجع عباراتها، وأسند أحاديثها، وخرَّج آثارها، ورتبها فى نسق جميل. وهو جهد استغرق

منه وقتا كبيرًا، فجـزاه الله على حسن صنيعه، وأجزل له المثوبة على أن مهدهـا تمهيدًا، وهيأها للقـراء الكرام. كما أسأل الله سـبحانه أن يتقـبلها قبولاً حسنًا ويجعلها فى ميزان أعمالنا يوم نلقاه غير مبدلين ولا مغيِّرين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب الـعالمين، وصلى الله على نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

العبد الفقير إلى مولاه

أحمد محمد العسال

إسلام آباد ١٣ ذو الحجة ١٤١٧ هـ

٢٠/ ٤/ ١٩٩٧ م

الدعوة وواجب الالتزام

إن مقام الدعوة إلى اللّه عز وجل مقام عظيم لا يتوق إليه إلا أصحاب الهمم العالية والعزائم القوية والقلوب الكبيرة، الذين باعوا أنفسهم للّه واستلهموا شرعه ودينه: الطريق والعمل، ولا غرو أن جعلهم اللّه عز وجل على بصيرة وفقه مصداقاً لقوله على لسان نبيه ﷺ: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف:١٠٨]، قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: «يقول تعالى لرسوله صلى اللّه عليه وسلم آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أى طريقته ومسلكه وسنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، يدعو إلى اللّه بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول اللّه ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلى وشرعى»(١).

ولا تأتى هذه البصيرة إلا بفقه شمول هذا الدين وإحاطته لكل شىء فلا يخرج عنه كل ولا فرع، وصدق اللّه: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل:٨٩]، ولهذا قال علماؤنا: «إن هذا الدين لا يصلح له إلا من أحاطه»، وصدق اللّه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾[البقرة: ٢٠٨]، ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ [البقرة:

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن ج ٢ ص ٤٩٥-٤٩٦.

.[١٣٨

ولهذا الدين مقاصده الكليـة التى لا يخرج عنها شىء، وله مراتبه فى العمل من الضروريات ثم الحاجيات ثم التحسينيات، فضرورة حفظ الدين تقدم على كل شىء، ثم النفس والنسل.. وهكذا، ومن ثم تصبح كليات الإسلام العامـة ومحكماته الضابطة للفرعيـات والمتشابهات حاكمـة لسير الداعية، فقـد جاء هذا الإسلام رحمة للعالمين ولإقـامة العدل والقسطاس بين الناس، يقـول الله تعـالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾[الحديد: ٢٥]، ﴿ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ [الرحمن: ٩]، ولهـذا عندما تداعت قبائل من قريش على إثر الحرب التى سـميت بحرب الفجار لانتهاكـها حرمات البلد الحرام والأشـهر الحرم؛ إلى «حلف الفضول» فـى ذى القعدة فى دار عبد الله بن جـدعان ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغـيرهم من سائر الناس إلا قاموا مـعه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظـلمته، وكان رسول الله ﷺ شهـد هذا الحلف وقال بعد أن أكرمه الـله بالرسالة: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعـان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»(١) .

ولهذا مـضت الدعوة الأولى على طريق البلاغ والإنذار ولم تستـعجل

---

(١) رواه الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر. كذا فى ابن كـثير «البـداية والنهاية» ج٢ ص ٢٩١. وكـان حلف الفضول قـبل المبعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر.

شيئاً قبل تهيؤ أسبابه، ونزل على النبى ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وإذا كان الدعاة اليوم يواجهون الظلم والقهر والكبت والحصار والتضييق فهذه سنة التدافع وسنة الصراع بين الحق والباطل، وما عليهم إلا أن يمضوا ويستمروا فى البلاغ والدعوة والتعهد والرعاية والتكوين، ولا يحملنهم ما يلقونه أن يخرجوا عن سنن الحق، فإن عدوهم يريد أن يخلى ديارهم منهم، فيترك الأمر للعابثين والمتهاونين، ويصدق قول القائل: خلا لك الجو فبيضى واصفرى »[1].

إن الانقياد وراء ردود الأفعال ووضع السيف فى الرقاب تصرف يخرج عن الحكمة وعن ضوابط الشرع الذى أمر اللّه أن يكون ذلك فى يد من يوليه اللّه أمر الأمة، فيكون الجهاد لحماية الثغور، ويكون من سلطته تولية القضاة الذين يقيمون شرع اللّه، أما إنهاء الخلاف حول قضية الحكم وحول تداول السلطة بالسلاح فهذا أمر يدخل الأمة فى فساد وتهارش لا

---

(١) قال طرفة:

يا لكِ من قُبَّرة بمعمَرِ
خلا لكِ الجو فبيضى واصفرى
ونَقِّرى ما شئت أن تُنقِّرى
قد ذهب الصيَّاد عنكِ فابشرى
لا بُدَّ من أخذك يوما فاصبرى

(ابن منظور: لسان العرب ج ٥ ص ٦٩) والقبرة: ضرب من الطير.

يستفيد منه إلا الظالمون وأعداء الأمة، ويدخل المجتمع فى حالة من الخوف والاضطراب والفتنة تُضيّع على الدعوة والقائمين عليها فرصة البلاغ والتجديد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد امتنع رسول الله ﷺ من عقاب المنافقين رغم أن زعيمهم[1] قال فى إحدى الغزوات[2]: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وقال قولته الرائعة الحكيمة: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[3]، وأخذ منها الإمام الشافعى مبدأ فقهياً رائعا ألا وهو: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»، ولما وكز سيدنا موسى عليه السلام القبطى وقضى عليه بدون تبين: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ : ١٦].

وقد حرم الله عز وجل قتل النفس البشرية ولم يبح إزهاقها إلا بمسوغ من الشرع فقال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ودخلت امرأة النار فى هرة حبستها[4]،

---

(١) هو عبد الله بن أبى بن سلول.

(٢) هى غزوة المريسيع.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب قوله تعالى: [سواء عليهم أستغفرت لهم..] ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب: نصر الأخ ظالما أو مظلوما.

(٤) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق - باب خمس من الدواب فواسق. ومسلم فى كتاب السلام - باب تحريم قتل الهرة.

ودخل رجل الجنة لأنه سقى كلباً يلهث الثرى(1)، وصدق اللّه : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب فشكر اللّه له فغفر له «أخرجه البخارى فى المظالم - باب الآبار على الطرق. ومسلم فى السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة.

أصول التربية الإسلامية (١)

التربية الإسلامية الصحيحة لها أصول أساسية واتجاهات رئيسية تأخذ بيد الفرد والجماعة تجاهها وتدفعهم إليها حتى تصبح تلك الأصول والاتجاهات ممتزجة بالنفس موحدة خطى الفرد والجماعة فى وحدة متناغمة متناسقة تسعى لإقامة حياة إسلامية فى واقع الحياة يسعد بها البشر ويرضى عنها رب العباد، وإليك ملخصاً لهذه الأصول والاتجاهات:

أول هذه الأصول: قدح زناد النفس وإيقاظ جانب التزكية فيها، وإذكاء ذلك: بإخلاص العمل لله، وإحسان النية واصطحابها فى كل عمل، حتى لا ترجو غير الله، ولا ترقب إلا رضاه، يقول الله تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [البينة: ٥] **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾** [الإنسان ٨: ٩].

وهذا ميدان يستغرق الحياة كلها وهو ميدان جهاد النفس فى إلزامها الحق وكفكفتها من دواعى الهوى والشهوة، يقول النبى ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه فى الله»[1] وصدق الله العظيم **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ**

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الجهاد، باب فضل الرباط. والترمذى فى كتاب فى فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل من مات مرابطا وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد فى المسند ج ٦ ص ٢٠.

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

والأصل الثانى: إرواء النفس بما هيأ اللّه وفرض من أركان الإسلام العظام ومبانيه الكبار ولزوم أمر الشريعة فى كل صغيرة وكبيرة، والحرص على ذلك حرصاً يأخذ الأولوية فى كل شىء، فإقامة الصلاة مع الجماعات وفى أول الأوقات والحرص على تسبيح اللّه بكرة وعشياً، والمشى فى ظلمة الليل إلى المساجد، والاعتناء بوقت السحر، والاطمئنان بذكر اللّه والتضرع إليه، وإيتاء الزكاة من كل ما أعطاك اللّه علماً وخلقاً ومالاً وفضلاً.

وإذا عمر الجنان بذكر اللّه وعبادته بكل ما أعطى اللّه وتفضل من صلاة وإنفاق وصوم وحج وإعمار وتسبيح وذكر، استجابت الجوارح ودخلت مسالك الصالحين ، وحينئذ يحتاج الأمر أن يأمر الملك جنوده فيطيعوا أمره وينزلوا عند إشارته على نحو ما قال القائل:[١]

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

والملك هنا القلب، والجنود هم الجوارح:

والأصل الثالث: فى واجبات التربية : تأهيل النفس لتؤدى رسالة اللّه فى الحياة على حسب ما يسرها اللّه له «كل ميسر لما خلق له»[٢] فقد

---

(١) الإمام البوصيرى: ديوان البوصيرى - تحقيق محمد سعيد كيلانى - ص٤ طبعة مطبعة مصطفى البابى الحلبى، مصر.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد، باب «ولقد يسرنا القرآن للذكر». ومسلم فى القدر، باب كيفية الخلق الآدمى.

استخلفنا اللّه عز وجل فى هذه الأرض لعمارتها[1] وابتلانا بالحياة ليبلونا أينا أحسن عملا،[2] فعلى قدر تنمية مواهبنا وشحذ ملكاتنا، وتأهيلنا لأداء عملنا الوظيفى يكون عطاؤنا ، ويكون تقدم مجتمعاتنا، ويقاس الفرد بمدى كفاءته وقدرته على أداء واجباته المنوطة به، ويقاس تقدم المجتمع بمجموع عطاء الأفراد وقدرتهم على أداء عملهم بكفاءة وإحسان كل فى اختصاصه، فالناس بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم، وهذا هو معنى التسخير فى قول اللّه عز وجل: ﴿ **لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الأصل الرابع: الوسط الذى يتحرك فيه الفرد، وتتغذى فيه ملكاته، وأعنى به المحاضن المتعددة التى تحوطه وترعاه، من أسرية، ومدرسية، واجتماعية، وأنشطة مختلفة، فالمجتمع معلم يمنح الفرد تقاليد وعادات والفرد يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه، ولذلك حرص الإسلام على حسن اختيار الزوجة، وحسن اختيار الجار ووصى اللّه عز وجل بالجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب، وجاء فى الحديث الصحيح «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» [3].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[هود: ٦١].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك: ٢].

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، والترمذى فى كتاب الزهد، باب الرجل على دين خليله، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأحمد فى المسند ج ٢ ص٣٠٣، ٣٣٤. والحاكم فى المستدرك، كتاب البر والصلة. وقال: حديث صحيح إن شاء اللّه تعالى ولم يخرجاه.

وقد أسس رسول اللّه ﷺ المســجد ليكون واحة للمؤمنين يتلقــون فيه آيات اللّه والحكمة، ويتزودون منه، ويرى بعضهم بعــضاً فيتعلم كل منهم من الآخر.

أصول التربية الإسلامية (٢)

تعتبــر صناعة الوسط الذى يتربى فيه الفرد من الأمــور العظيمة، وأهم الأشياء التى يجب أن نراعيها كعاملين للإسلام بما يأتى:

- الجو الصحى الكريم الذى يعبق فيه شذا الأخلاق الكريمة وتتمثل فيه شعب الإيمان كلها، ويتنافس فيها المتنافسون.

- الحرص على القدوة الصالحة والتعليم بهـا وإيثارها، فقد قال القاسم ابن محمد أحد فقهاء المدينة السـبعة: «أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل»[١].

- الاهتمام بنظام الحياة اليومى بحـيث يكون ثراً نافعاً متزنا يجمع بين العناية بجـوانب الحياة كلـها البدن والعـقل والروح والأهل. . «إن لربك عليك حقـاً ولنفسك عليك حـقاً ولأهلك عليك حقـاً فأعط كل ذى حق حقه»[٢].

- الاهتمام بـالدور الاجتماعى وحسن الـصلة بالناس والعطف عليهم ومشاركتــهم وفهم مشكلاتهم، والوقوف معهم، فـالمرء يزداد خيراً وتتسع نفسه حيث يكون نافعاً للناس، وفى الحـديث الحسن: «خير الناس أنفعهم للناس»[٣] وينفع فى ذلك معرفة ثقافتــهم وعاداتهم ومذاهبهم وصدق اللّه

---

(١) أخرجه ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، باب جامع القول فى العمل بالعلم.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع.

(٣) أخرجه القضاعى عن جابر، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

العظيم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم : ٤]. واللغة هى جماع كل ذلك.

- التوجه إلى الآخرة والرغبة فى لقاء الله «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[(١)] ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤] والتركيز على التجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت وصدق رسول اللهﷺ: «ازهد فى الدنيا يحبك الله عز وجل وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس»[(٢)] ، «أحسن جوار من جاورك تكن مسلماً وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[(٣)].

- وقال: «إذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع، قالوا: ما آية ذلك يا نبى الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

(٢) أخرجه الحاكم فى كتاب الرقاق عن سهل بن سعد. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ج ٤ ص ٣١٣. وابن ماجه فى كتاب الزهد، باب الزهد فى الدنيا وأبو نعيم فى الحلية ج٧ص١٣٦.

(٣) نص الحديث: «يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد، باب الورع والتقوى. وقال فى الزوائد: إسناده حسن. والترمذى بنحوه فى كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول، الأصل السادس والثمانون ص ١٢٥, ١٢٦ طبعة دار صادر - بيروت.

- الاهتمام بإحياء فريضتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بما أدبنا الله به من الحكمة والموعظة الحسنة وحسن التأدب واقتلاع النباتات الضارة قبل أن تستفحل، واتباع سنة سيد الخلق بقوله: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»[1] «ما قالة بلغتنى»[2]، وهكذا، وإزالة الحرج والتودد إلى المؤمنين وخفض الجناح والاستماع لهم والصبر على مسيئهم والعفو عن جاهلهم وتشجيع محسنهم.

كذلك إحياء الشورى والتثبت، والاستماع إلى أهل الذكر والفضل فى كل شىء.. ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى: ٣٨] «بايعت رسول الله على السمع والطاعة، فلقننى «فيما استطعت» والنصح لكل مسلم»[3].

بهذه الخطوط الرئيسية التى تحتاج إلى مزيد من التفصيل والتبيين تمضى التربية على هدى من الله، وفى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الأسلاف الميامين الخير الكثير والفضل العميم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) عن عائشة قالت: كان النبى ﷺ: إذا بلغه عن الرجل الشىء لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا..» أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب، باب فى حسن العشرة.

(٢) عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة.. فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ..» أخرجه أحمد فى المسند ج ٣ ص ٧٦.

(٣) أخرجه البخارى عن جرير بن عبد الله فى كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ومسلم فى كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

دور المربين فى إعداد الجيل المسلم

يقول سبحانه: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠] ويقول اللّه تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل: ٧٨].

من مجموع هاتين الآيتين الكريمتين ندرك أن اللّه عز وجل زودنا بفطرة سليمة وخلقة مستقيمة متجاوبة مع الدين الحق، ولكنها تحتاج التعليم والتربية حتى لا تضل عن سنن الحق، كما أشارت الآية الثانية بقوله سبحانه: ﴿**لا تعلمون شيئاً**﴾ ومن ثم رزقنا اللّه حواس الإدراك والفهم لنحصل هذه المعرفة وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾.. ويفسر ذلك حديث النبى ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1]. وصدق الشاعر:

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، سورة الروم، باب لا تبديل لخلق اللّه، ومسلم فى كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

وإذاً: فالمهمة الأساسية التى تضع الفطرة فى خطها الصحيح وتلقنها مبادئ الحق وتنشئها على قيم الفضيلة والخير هى مهمة المعلمين والمربين، ولا عجب إذا وجدنا أن الحق سبحانه وتعالى اختار للبشرية أفضل عباده وأكرمهم وهم الأنبياء فقد اصطفاهم ورباهم، وكان من أهم صفات تأهيلهم للرسالة أن آتاهم العلم والهدى والحكمة والخلق النبيل، فكانت فيهم صفات الأمانة والفطانة والصدق والقدرة على البلاغ المبين، يقول اللّه تعالى فى شأن سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٢٢] وفى شأن خُلقه: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ [يوسف: ٣٣]وفى شأن أمانته وفطانته: ﴿ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٣٧] وقول صاحبيه له: «إنا نراك من المحسنين» ثم موقفه مع الملك حين أرسل إليه فى السجن(١). وفى قصة سيدنا موسى عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [القصص: ١٤] ثم توجهه إلى اللّه: ﴿ **رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ [القصص: ١٧] ثم خروجه تلقاء مدين ثم وروده ماءها وعونه لبنتى شعيب(٢).

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٤: ٥٥].

(٢) القصص: ٢٢- ٢٨.

وفى قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٥١] ثم فى سيرة إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ [الضحى٦ :٨]. ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٣].

وها هى قصص الأنبياء والمرسلين مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة النبوية لتكون معلماً واضحاً ومدرسة دائمة يتلقى منها المربون والدعاة دروس التربية الصحيحة ويرودون آفاقها الرحبة فيقتدون ويتبعون ويصححون خطوهم عليها، وصدق الله العظيم: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾[الأحزاب: ٢١]، ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾[الممتحنة: ٤].

إذا فالمعلم الأول فى التربية الصحيحة أن يقوم عليها ويرعاها ويتولاها مربون كبار أخذوا أنفسهم بسمة أولى الفضل من أولى العزم، وتسربلوا بأخلاقهم وتحلوا بصفاتهم. وهكذا كان الصحابة مع رسول الله ﷺ، يردون حوضه، ويتزودون من مجلسه، ويلقون أسماعهم وقلوبهم عنده، يسألونه إن غم عليهم أمر، ويستوضحونه إذا استشكل عليهم شىء، رضى الله عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم أبراراً متقين.

من واجبات المربين

(تكوين ملكة الوعى)

من أكثر الأمور أهمية وإلحاحاً فى مرحلتنا الحالية، وفى ظروف أمتنا المتشابكة، تكوين ملكة الوعى لدى أبناء الأمة الإسلامية، وخاصة الدعاة والعاملين للإسلام فعليهم يقع عبء اتخاذ الموقف الصحيح من الأحداث والأشخاص.

وتكوين الوعى ليس مهمة سهلة تأتى هكذا عفواً، وإنما تأتى عبر ثقافة ذاتية دائبة يجتمع لها التكوين العقلى أولاً الذى يحسن تدبر الأمور ووزنها بالموازين الصحيحة، ثم الدأب على تكوين الرصيد المعرفى الذى يكون بمثابة المنظار الذى يبصر به الحدث ويقدره به، وأمر آخر هو متابعة المتغيرات التى ترد على الأحداث وتوجهها حتى يظل قادراً على استبطان الأمر وحسن التقدير والتأدى لما تأتى به الأيام وتحمله فى طياتها من مفاجآت.

ولكن أى نوع من الوعى نريد تكوينه: أهو وعى وفهم عام للمتعة العقلية والمعرفة الشخصية الذاتية لعالمنا الذى نعيشه أم ماذا؟

إن الوعى الذى نريده ونسعى له هو وعى المسلم المؤسس على المعايير القرآنية التى ثبتها وسنها نبينا محمد ﷺ فى تكوين هذه الأمة وبنائها

والتى عمقتــها تجربة الأمة وأصَّلتها خلال أربعة عــشر قرناً من المد والجزر حتى أصــبحت دورات الصراع بين الحق والباطل فــيها واضحــة جلية من خلال مواقع الإسلام المشهورة وأيامه المعلومة وتاريخه الذى تردده الأجيال للأجيال.

إن هذا الوعى نسيــج متشــابك يبدأ بالتكوين الفكرى المتــدرج وتصنعه جملة من المعارف الواسعة التى تكونه روافــد متعددة وعلوم متنوعة تكون بمثابة القاعدة الواسعة لهذا الوعى، ثم ينتهى إلى تخصيص محدد يخدم به المسلم أمــته ودينه، ومن غــير ذلك لايكون الوعى صــحيــحاً ولا رؤيــته صائبة.. كمن يفهم شيئاً من الفقه ولا يعــرف واقع مجتمعه ومقدار ثقافة المسلمين الذين يريد أن يفقههم فبدلاً من أن يعلمهم ما يحتاجون إليه وفق معرفته لمستواهم يذهب فيحــدثهم فى قضية تشغله هو فى الجانب الفقهى الذى يدرسه ولا تتصل بحياتهم وظروفهم.

ومن هنا فــإن طاقات كبــيرة تصــرف هدراً وتضيع هباء ســببــها الأول والأخيــر انعدام الوعى والتفكيــر الساذج فى القــضايا الكبيــرة، والاندفاع العاطفى الحماسى لعلاجها، وتكون النتــيجة هى بقاء المشكلة بل وتعقدها من جانب، والإحباط واليأس من جانب آخر، والساحة الإسلامية والعمل الإسلامى ملىء بالأمثلة فى قــضايا كثيرة، قضــايا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قضايا التعليم والتربية، قضايا الجهاد وإعداد الأمة للنصر على أعدائها، قضايا الإعلام والسياسة.

ففى قضيــة الجهاد مثلاً هناك أساسيــات لابد من توافرها والعمل على إيجــادها وإلا لايمكن أن يعطى الجــهاد ثمــرته ولانتــيجــته، وهى وحــدة

المقاتلين وانتظام صفهم بحيث يكــونون كالبنيان المرصوص، ونصرتهم الله عز وجل فى أنفــسهم بطاعــته وإخلاص العــمل له، وإحســان تدريبهم، واستــخدام المتاح من الــعلوْم العسكرية على أحــسن وجه، ووجود قــيادة سياسية تستــثمر كل ذلك. . . نأتى فنهمل بعض هذه الأسس، ولا نعمل على استــيفائهــا، ولا نتحرك لتــدارك النقص والخلل فيهــا، فكيف ننتظر النتائج؟ ونحــن نهمل سنن الله عز وجل ونتــحرك بغــير وعى وتدبر وهو القائل عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ٧١] وهو القائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ** ﴾ [آل عمران: ١١٨].

إن من الوعى ألا تقدم على خطوة إلا إذا كــانت تؤدى إلى تثبيت سنة من سنن الله عز وجل، أو إقامة أمر من أوامــره فى بناء الأمة والجماعة، وإلا صرت عاصــياً لله عز وجل، وهذا الوعى يشمل جوانب الحــياة كلها التى تتحرك فيها؛ فإن عُــمى عليك أمر أو اشتبه عليك؛ فما عليك إلا أن تستوضــح وتلتمس العلم والفهم وهذا قول العلى الــكبير: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنبيــاء: ٧] وقول النبى الكريم تعليــقا على أصحابه الذين أفتوا صاحبهم بالاغتسال بالماء البارد فمات فقال ﷺ: «ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العى السؤال»(١).

(١) عن جابر قال: خــرجنا فى سفر فأصاب رجــلا منا حجر فشجَّــه فى رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتــسل فمات، فلما قدمنا على النبى ﷺ أُخبــر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم =

إن مسئولية طلبة العلم كبيرة والمتصدرين لتوجيه الناس وتعليمهم عظيمة، وتداخل القضايا بعضها فى بعض، وتعدد جهات التأثير والقوى العاملة والمتربصة بنا فى داخل مجتمعنا الإسلامى كثيرة والظروف التى نعيشها معقدة غاية التعقيد. . كل ذلك يجعلنا نرسل الصراخ العالى والنذير تلو النذير: كفى هدراً للطاقات وكفى عشوائية وارتجالاً، ولنتق الله عز وجل ونحسن الأخذ بسنن الله ونواميسه فإنها غلابة.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

= ويعصر أو يعصب - شك موسى - على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة، باب فى المجروح يتيمم. وابن ماجه فى كتاب الطهارة، باب فى المجروح تصيبه الجنابة. والحاكم فى كتاب الطهارة ج١ ص١٧٨.

من مرتكزات الوعى الإسلامى

(إن الرائد لايكذب أهله)

من سنن الله وقوانينه التى أقام عليها الكون وبثها وجعل نتائجها حتمية ولازمة: غلبة الحق وانتصاره، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء:١٨]، وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ [غافر:٥١] وقوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد:٧]، ولكن هذا الحق لابد أن يتمثل فى أخلاق وأعمال تنتج نتائجها وتؤتى ثمارها، وهذا ما رأيناه وشاهدناه فى سيرة الدعوة الأولى، صدق يهدى إلى البر، وصبر يستجلب الثبات، وألفة جامعة على الحق تجلب القوة والاعتزاز، وطاعة وإنكار للذات وتضحية تنزل النصر وتأتى بالفتح ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح:١٨]. وفى المقابل سنن أخرى تأتى بعقابها الذى لايُرد، وقد سجل الله تعالى فى القرآن الكريم مثل هذه السنن تربية للمؤمنين وعبرة لهم حتى يتعلموا ويحذروا، فحينما نزل الرماة فى «أحد» عن «الجبل» وعصوا رسول الله ﷺ ولم يلتزموا بأمره انكشف ظهر الجيش وحدثت

الهزيمة ودفع المسلمون ثمنها، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفى حنين حصل درس آخر ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. المهم أن هذه السنن لاتحابى ولا تجامل فهى قوانين نافذة، وها أنت تراها ورسول الله ﷺ بين ظهرانى المسلمين ومعه أجلاء الصحابة، لأنها قوانين الحق، فهل يمكن أن تنهض أمتنا من غير ذلك؟ وهل يمكن أن تحقق طلائع الجهاد وأبناء الدعوة الثمرة المرجوة والنصر المرتقب من غير أن يحققوا ذلك؟

إنه لمن المؤلم للنفس والممض لها أن نتغافل عن ذلك، وألا نعى دورنا فى إعداد الأمة للنهوض بشرائط الحق وسننه ونظن أنه يمكن تحقيق النصر مع إغفالنا لبعض متطلباته وشرائطه، لابد أن نفرق تفريقاً واضحاً ونميز تمييزاً شديداً بين معركة الخروج بمجتمعاتنا من أوحال العلمانية وفترات الانحطاط والتخلف، وبين المعركة النهائية التى تكون والأمة قد استوى عودها وتميز صفها واستحوذت على كل وسائل النصر، ولانخلط بين المرحلتين، وإلا انتفت منا الجدية والصدق وأصابنا القدر الأعلى بضرباته وجزائه الشديد، ونحن نتطلب رحمته وعونه، وصدق رسول الله ﷺ: «إن الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما

كذبتكم»[1] وتعالوا ننظر إلى الحركة الإسلامية فى أفغانستان حتى نضع أيدينا على الصورة الواقعية التى تهدينا إلى المعالجة الصحيحة السليمة.

من المعلوم والمسلم به أن دورة الصراع الذى تشهده الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها هى دورة الصراع مع الغرب بشقيه الرأسمالى والشيوعى، وأننا نعيش فترة ما بعد سقوط الخلافة واجتياح الغرب بقواته وأجناده معظم بقاع العالم الإسلامى، وأن الغرب عمد فى فترة الاحتلال إلى تجذير وجوده فى التعليم والإعلام والسياسة وصبغ الحياة الاجتماعية بعملائه ورجاله، وأنه أقام قلاعه الفكرية فى داخل مجتمعاتنا، وسلم مقاليد الأمور للأجيال التى ربّاها، وصبغها بالصبغة العلمانية، وترك خيطاً ضعيفاً مظهرياً شكلياً مرتبطاً بالدين لدغدغة عواطف العامة، وعزل التعليم الدينى عن التعليم العام، وبذلك سلم له الزمام للقيادة والتوجيه.

ولم تكن أفغانستان بمعزل عما كان يجرى فى العالم الإسلامى، فقصة الملك أمان الله خان وزيارته لكمال أتاتورك وإعجابه بالكمالية اللادينية مشهورة، وثورة الشعب الأفغانى عليه من أجل الحجاب معروفة ومعلومة... ولكن الطبقة المثقفة وأرباب الحكم كانوا فى الأعم الأغلب

---

(١) رواه ابن الأثير عن جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم (الكامل فى التاريخ ج٢ ص٦١ طبعة دار صادر بيروت). وقال صاحب (سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ج٢ ص٤٣١، ٤٣٢) رواه البلاذرى عن جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم. وقال الألبانى فى تعليقه على أحاديث (فقه السيرة للغزالى ص١٠٢) لم أجد فى الرواة هذا الراوى وإنما فيهم «جعفر بن عبد الله بن الحكم» وهو أنصارى دوسى تابعى صغير يروى عن أنس والتابعين، فإذا هو هذا فالإسناد مرسل ضعيف، ولم أقف على إسناده إليه، وإن كان غيره فلم أعرفه.

يمضون فى ظل العلمانية، وتُرك الشعب لقبليته وأميته، وإذا كانت الدورة جاءت متأخرة فى أفغانستان، فذلك لعزلتها الجغرافية، وصراع شعبها البطولى مع انجلترا وإبائه، ولكن الذى كان يجرى فى داخل أفغانستان كان هو التغريب حتى إن أحد الإخوة الأفغانيين قال لى: كنا فى الجامعة قبل الاحتلال السوفيتى.. وكان إفطار رمضان شيئاً عادياً فى الجامعة، وكان الصائمون يعدون على الأصابع.

وقد كان التعامل مع روسيا والغرب يمضى متوازياً، كل منهما يؤسس قواعده وينشر فكره، فالبعثات التعليمية الأفغانية إلى روسيا، دائمة ودائبة، والاتفاقات الثقافية والاقتصادية مستمرة، وكذلك مع انجلترا وأمريكا. فى هذا الجو الجارف للحضارة الغربية جاءت شرارة اليقظة الإسلامية من قبل بعض الطلاب الدارسين فى العالم الإسلامى الذين عادوا إلى أفغانستان، وكان ذلك فى الخمسينات، وبدأ هؤلاء الشباب دورهم فى تذكير إخوانهم ودعوتهم إلى الله عز وجل، وكان أولهم فى ذلك المهندس الشهيد غلام نيازى رحمه الله، إذاً فالدعوة جاءت لجيل الشباب آنذاك وجاءت فى هذه الفترة المتأخرة والمجتمع هو كما نعلمه بأثقاله وأحواله وشرائحه المتعددة من القبلية والأمية والظروف الاقتصادية الصعبة.

وكلّ من الدب الروسى والعم سام يعملان بنشاط ودأب فى المجتمع، وخارطة تقسيم النفوذ بينهما فى مؤتمر (يالتا) سنة ١٩٤٥م بعد الحرب العالمية الثانية تقضى أن تكون أفغانستان منطقة نفوذ مفتوحة لكلا المعسكرين، ولكن شهوة التوسع وازدياد النفوذ الروسى ووجود التنظيمات

الشيوعية فى داخل أفغانستــان- وخاصة فى الجيش - والترف والفساد فى الأسرة المالكة، كل ذلك فـتح شهية الـدب الروسى لتغليب جناح «داود» وإغـرائه باستــلام السلطة مـرحلياً من الملك ثم بعـد ذلك إنهــائه وتسليم السلطة عن طريق عمــلائه ثم اجتيــاح أفغانستــان واحتلالهــا ليكون قاب قـوسين أو أدنى من مناطق الـبتـرول فى الخلـيج والجـزيرة ليـتم له حلم القياصرة منذ زمن بعيد فى الوصول إلى الميـاه الدافئة ومشاركة العرب فى الثروة البترولية فى الخليج والجزيرة العربية.

إن الشعب الأفغانى الكريم لم ينتبه للأغلال التى كان بها رويداً رويداً، وإنما لظروفه وأوضــاعه ومشكلاته كان قد أخـذه الكرى منذ زمن وجرت عليه سنة الله التى قال عنها رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم[1]»، وها هم أولو الأمر فيه يتــبعون تلك السنن، والناس الضعفاء تبـع لهم وكما قيل: (الناس على دين ملوكهم)[2]، فحينما بدأ الغزو الشيوعى يكشر عن أنيابه ويقلب ظهر المجن كانت الحركة الإسلامية فى أفغانستان فى دورها الأول، كــانت بين أبناء الجامــعة، فلما بدأ الجـهاد كــانت خـضراء العـود قليلة التجربة، وبدأت الجهاد دفعاً للمـحتل وحماية للدين وتطهيراً للأرض من دنس الكفار، وشغل الجـهاد بأعبائه ومتطلبــاته العاملين للإسلام، وتدفق المهاجرون، فألقت الحرب بأثقالها ومتاعبها على الحركة الإسلامية الوليدة،

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبى ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم، ومسلم فى كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

(٢) قال الإمام السخاوى: لا أعرفه حديثا «المقاصد الحسنة» ص٤٤١.

والتف حولها الشعب الأبى، ووقفت الأمة الإسلامية والمخلصون من أبنائها خلف الجهاد، هذا توصيف مجمل للحركة الإسلامية والواقع الذى فرض نفسه؟ فأين نحن بعد عشر سنوات من الجهاد؟ وما حال شعبنا؟ وما حال دعوتنا؟ وما استشرافنا للمستقبل.

شعبنا فرض عليه فى الداخل تعليم ماركسى غيّر المناهج والكتب، وجاء له الروس بخبراء فى التعليم، وحاولوا تحطيم اللغات الجامعة له بإحياء اللغات الأجنبية، ونقلوا آلافاً من الفتيان إلى روسيا لتعليمهم، وأنشبوا أظفارهم فى الجيش والبوليس، كل ذلك لتغيير البيئة الأصلية للشعب فى الأقاليم التى تحت سيطرة الحكم الشيوعى.

المهاجرون فى مهاجرهم تعمل فيهم مدارسهم ومدارس الإخوة الأنصار الذين نفروا إليهم من العالم الإسلامى، ومدارس الإرساليات التى أخطارها شىء معلوم ومعروف، هذا التعليم للأسف لم يستوعب كل أبناء المهاجرين، وأخطر ما فى الأمر الهجرة المفتوحة إلى كندا وأمريكا للشباب الأفغان والشابات بعد إعطائهم الدورات المكثفة فى اللغة الإنجليزية ثم تقديم التسهيلات والتيسيرات المادية والإجراءات الرسمية للسفر إلى تلك البلاد، ولا تخفى عواقب هذا ولا أخطاره.

ثم بعد ذلك انظر إلى الإخوة فى المهجر وموضوع العون لهم كيف يأتى؟ وممن؟ ثم انظر إلى الإخوة المجاهدين والمنظومة التى يعملون فى نسقها ويتحركون فى دائرتها والكلام فيها يصعب والحديث حولها مؤلم. إذ يكفى تعدد الولاءات الصغيرة، وكثرة القيادات وتشعبها، وقد يكون

هذا شيئاً فرضه الواقع، لكن السؤال الكبير: لماذا لانتحرك فى اتجاه تكوين القاعـدة الواسعة التى تنضبـط بإيجاد أساسيـات الأمة الواحدة والجمـاعة الشامـلة؟!! ولا أحب أن أسبق إلى مـا يجب أن يكون ولكنى لازلت فى توصيف الواقع.

ثم نأتى بعد ذلك إلى شـريحة أهل الذكر من العلمـاء الواعين والقادة لنسأل ما إنجازهم بالنسبة للواقع؟

لقد فتحوا المدارس، وأقاموا بعض الجامعات - كجامعة الدعوة والجهاد - وهذا والحمـد لله شيء عظيم، كما أقـاموا بعض الكليـات العسكرية، لكن السؤال الكبـير والعظيم ما الخطوات والاجـتهادات لعـلاج مشكلات الواقع؟، الواقع بأبعاده المتعددة ورؤيته الشـاملة من بعده الاجتماعى، إلى الثقـافى، إلى الدعوى، إلى السيـاسى، وهو سؤال مطروح على كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الاعتصام بحبل الله

مما لاشك فيه أن أخطر مـرض يواجه الصحوة الإسلاميـة المعاصرة هو اخـتلاف التـوجـهات، وعـدم القـدرة على ترتيب الأولويات؛ وبالتـالى الاندفاع العاطفـى نحو ما يبدو فى النظرة السريـعة أنه الأفضل والأوفق، وتلك قضية كبيرة لايمكن حسمها فى هذا المقال المتواضع، وتحتاج إلى زاد أصيل من الفقه بشقـيه: فقه النصوص وتبيّن المقاصد الشرعـية التى أقامها الشارع الحنيف للمـسلم ولأمة الإسلام فى هذه الحيـاة، وفقه الواقع الذى مرّت به الأمة فى عصورها المتأخرة وما حدث لها من الانحطاط الذى أدى إلى شيوع التـقليد والجمود والتضـعضع والانكماش. وكل ذلك أدى إلى الضعف النفسى والخلقى والعلمى وانعدام الثـقة فى النفس مما هيأها لحالة القابلية للاستـعمار كالغريق الذى أدركه الموج من كل جانب فـهو يتشبث بأى قشة للنجاة، وقد وجد أعداء الإسلام فرصتهم فلعبوا بهذا الغريق كما يريدون، ولله الأمر من قبـل ومن بعد، لذا فلابد للصحوة الإسـلامية أن تعطى نفسـها مزيداً من التـفقه ومـزيداً من دراسة الحاضـر الذى هو ثمرة لمراحل سبقتـه وأنتجته، فالعلاج الحاسم لايـتم إلاّ بمعرفة المرض وتاريخه ومراحله وظـاهراته، ولحكمة بالغـة نشّأ الله أنبـياءه ورسله بين أقـوامهم لتكون المعرفـة عميقـة والخبرة كـافية للقيـام بعملية الدعـوة والإصلاح، وصدق الله العظيم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[إبراهيم: ٤].

إن أى عمل - كائناً ما كان - لاينبنى على دراسة وتخطيط وتحضير مصيره التخبط والفشل والضياع، ولذا أوجب الإسلام العلم قبل القول والعمل والنية لأن العلم مصحح لكل ذلك. قال الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [محمد: ١٩][١]، وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «من عمل فى غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٢] ومن هنا فعلى الصحوة الإسلامية أن تستكمل كل وسائل الرشد وأن تأخذ بكل وسائل التقويم والنقد، وأن تعرض نفسها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة السلف الميامين، حتى تتأكد أنها على النهج الصحيح ماضية، وبسنن الحق قائمة، ولتعلم أن التبيّن والتثبت والاستقامة على الطريق لايستطيعها إلا أولو العزم وأصحاب الهمم الكبيرة، ذلك أن الله عز وجل جعل هذه الحياة ابتلاء لعباده ليبلوهم أيهم أحسن عملاً[٣]. وقال سبحانه: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأول الأمور التى يجب على الصحوة أن تلتفت إليها فى وسط هذا الخضم اللجب هو ما أمرها الحق به وناداها إليه ألا وهو الاعتصام بحبل الله وجمع الأمة على ذلك وتفقيه الأمة فى هذا الأمر وإشاعة الآداب والسنن الإسلامية التى جاءت كالسور الحصين الذى يمنع الشيطان والأهواء والشهوات، حتى لا تخترقه فتفسد الروابط وتشيع الفرقة والنزاع والخلاف.

---

(١) قال الإمام البخارى رحمه الله فى كتاب العلم: باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ فبدأ بالعلم.

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله - باب تفضيل العلم على العبادة.

٣ - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢].

الوحدة الجامعة والأخوة الحانية

إن سمة عصور الانحطاط والتبعية: التفرق والتشرذم - وكما قال مالك ابن نبى عليه رحـمة الله: (الذرية)[١] - والهيام بالأمور الفـرعية والجزئية والعبـارات الطنانة والانشغال بهـا عن الأمور المحكمة الكليـة التى تضبط مسـار الأمة وتجمع شملهـا، وسمة عـصور الازدهار: الوحدة الجامـعة، والأخوة الحانية، والحوار البناء الهادف، والخلاف المهذب المؤدب، والحب العميق فى الله، والرغبة الصادقة فى مـعرفة الحق، وإشاعة الجو الطهور. وفى تاريخ أئمـتنا الميامين ومـدرسة الحـديث بينة وصدق مـا أقول. وإذا كانت أمتنا قد مرت بمحنة الفرق الكلامية ومحنة الخوارج أفلا ينبغى علينا أن نتعظ من ذلك ونحذر هذا المرتع الوخيم الوبيل، وفرق كبير بين النصح الجمـيل والوعظ اللطيف، وبين القـول الغليظ والتعنـيف الشديد وإقـامة الأسوار النفسية والنظرات الكارهة، فقد قال سيد الدعاة ﷺ: «فإنما بعثتم ميسرين ولـم تبعثوا معسرين»[٢] وقال أيضا: «إن الله رفيق يحب الرفق فى

---

(١) مفكر جـزائرى، اتجه منذ نشأته نحو تحلـيل الأحداث التى كانت تحيط به، وقـد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتـخلف باعتبارها قضية حضارة أولا وقبل كل شيء فوضع كتبه جميـعا تحت عنوان [مشكلات الحضارة] وُلد عام ١٩٠٥ فى مدينة قسطنطينة وتوفى فى ٣١ أكتوبر ١٩٧٣ فى الجزائر.

ويقصد بالذرية نزوع الفرد إلى تجزئة مشكلة الحياة فيتناولها ذرة ذرة. انظر مالك بن نبى: وجهة العالم الإسلامى ص١٥ طبعة دار الفكر - دمشق ١٩٨١م.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب، باب قول النبى ﷺ يسروا ولا تعسروا.

الأمر كله[1] وقال: «إن المرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه»[2] وقال: «المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[3]، وقد وصف رب العزة جل جلاله نبيه الكريم بقوله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد بلغ ﷺ الأوج فى الرحمة بهذه الأمة، والمقام لايتسع لإيراد الأمثلة على ذلك ويكفى أنه قال للصحابى الذى أخبره عن خطأ أحد المسلمين: «لو سترته بردائك لكان خيراً»[4] وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[5]. فهل نحاول أن نقتدى ونتأسى بالحبيب الكريم ﷺ؟ اللهم لاتحرمنا ذلك.

ولايمكن أن نتأدى لهذا الخلق الكريم الرفيع إلاّ إذا أخذ كل منا نفسه بفقه الإسلام وأدبه، وأول ذلك أن تتسع قلوبنا وحبنا لكل من شهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة، وأن نطهر قلوبنا من وساوس الدغل والكراهية والضيق والتبرم، وأن نتأدب بأدب الإسلام فى الفتيا، فإن هذا مقام كبير يحتاج علماً أصيلاً وخلقًا حسناً وقدرةً على تكييف الفتوى ومعرفة الواقع.. وإلا فلا يمكن تنزيل النص على الواقع وهو أمر خاض فيه السلف ووصفوا له شروطه وضوابطه.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب إذا عرَّض الذمى وغيره بسب النبى ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ج٥ ص٣٣٥ طبعة المكتب الإسلامى ودار صادر - بيروت.

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الحدود، باب ما جاء فى الرجم.

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال.

لكى نتذكر ولا ننسى

يجب أن يتـذكر أبناء الأمة على اختـلاف أجناسـهم وألوانهم، وعلى اختلاف درجات وعيهم وفقههم، وبالأخص دعاتهم وطلاب العلم فيهم، ومن اختارهم الله عز وجل للقيام بفريضة الجـهاد فى سبيله أنهم متعبدون بالاعتصام بحبل الله والاستمساك بعروة الألفة العامة والمحبة الشاملة، وأنه لا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويتأسّى بخـير الخلق محمد ﷺ أن يبغض مسلمًـا، أو يحسده، أو يتدابر معه أو أن ينابذه إنما هـو الاعتصام بحبل الله جـميعًا، ولنذكـر أن الله سمّانا أمـة وجعلنا خير أمـة أخرجت للناس[1] وخلّصنا من غـلو الأمم السـابقـة وتشـدداتهم واخـتـلافـاتهم وتنازعهم[2]، وحفظ لنا هذا الدين غضًا طريًا لم يُشَبْ، وقال لنا بأننا أمة الأنبياء جميعًا، فـقاله سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّـتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقـال نبيـا محـمـد ﷺ: «بعثت بالحنيـفيـة السمحة»[3]، قال ابن القيم[4] رحمه الله: «حنيفية فى التوحيد سمحة فى العمل»[5].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) إشـارة إلى قـوله تعـالى: ﴿**وَكَـذَلِكَ جَـعَلْنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُـهَـدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ج ٥ ص ٢٦٦.

(٤) ولد فى السـابع من صفـر سنة ٦٩١ هـ فى قرية زرع من قـرى حوران جنوب شـرقى دمشق، وتوفى بدمشق ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٧٥٢ هـ.

(٥) زاد المعاد فى هدى خـير العـباد ج٣ ص ٩ طبعـة مؤسسـة الرسالة، بيـروت، ط ثانية ١٩٨٥م.

والمتبع لسيرة خير الخلق محمد ﷺ ولأصحابه الميامين ولسلفنا الصالح

يجد أنهم انخلعوامن ربقة العصبية أيًا كانت، وحيث دارت، وأنَّى وُجِدت. وأنهم التحموا بالحق فصار يجرى فى عروقهم ودمائهم ويتردّد مع أنفاسهم، وأنهم والوا الله عزوجل ثم انعقدت آصرتهم مع المؤمنين، فكانت صدورهم سليمة ونصحيتهم خالصة، وبرئوا من داء الهوى الذى يزين لصاحبه الباطل الذى يضل عن سبيل الله، ولله در الإمام ابن تيمية[1] حين يحدد مواضع الداء ومكمن البلاء فيقول بعدكلامه عن بعض خصال أهل الكتاب الذي ابتليت بها هذه الأمة: «وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة فى العلم أو الدين من المتفقهة، أو المتصوفة أو غيرهم، أو إلى رئيس معظّم عندهم فى الدين غير النبى ﷺ، فإنهم لا يقبلون من الدين لا فقهًا ولا رواية إلا ماجاءت به طائفتهم. ثم إنهم لا يعلمون إلاّ ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقًا، رواية وفقهًا، من غير تعيين شخص أو طائفة غير النبى ﷺ[2]»، ثم بعد أن بيّن تحريف التأويل، وتحريف التنزيل وذكر ما بين اليهود والنصارى، وأن كل واحدة من الاثنين تجحد كل ما عليه الأخري قال: «وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا، ولا يعدهم إلاّ جهّالاً ضلاّلا، ولا يعتقد فى طريقهم من العلم والهدى شيئًا،

(١) ولد يوم الإثنين عاشر وقيل ثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ فى حران وتوفى سجينا فى قلعة دمشق فى ليلة الإثنين لعشرين من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٨ طبعة المكتبة السلفية، لاهور، باكستان.

ونرى كثيرًا من المتصوفة والمتفقرة لا يرى الشريعة والعلم شيئًا، بل يرى أن التمسك بهما منقطع عن الله، وأنه ليس عند أهلها شئ مما ينفع عند الله، والصواب: أن مـا جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق، ومـا خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل(١).

إذا فمن علل الحـاضر الذى نعايشه،وينبـغى أن نسعى للاستشـفاء منه العصـبيـة للرأى أو للطائفة أو للمـذهب أو للجماعـة وهى ديدن كل من يتمسك بالفـرعيات بعيدًا عن الأصول والمقاصـد أو يهيم بالشكل قبل أن يضبط الجـوهر . . ، أو الذى يتكلم فى الصورة النموذجيـة والمثلى قبل أن يعرف الواقع ويفهـمه ويندفع فى إنكار المنكر قبل أن يعـرف أسباب تكوّن العادات وشيوعـها ولنتذكر أن العادة آسرة وأن الإلف شديد وأن العـصبية تعمى عن الحق وكما قيل: (حبك الشئ يعمى ويصم)(٢) وأن الكفار كان ردهم على أنبيائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

ولذا ينبغى أن نحذر العصبية وما تجره من الهوى وما تزينه من الخلاف والنزاع ومـا تبرره من القســوة والغلظة والجـفاء . . وأن الشـيطان يدخل للمسلم من مداخل الـطاعة وتزيين الرأى كما يدخل من مداخل المعـصية سواء بسواء . . ومـا العُجْبُ بالطاعة إلاّ طريق من طرق الشـيطان وغوايته أعاذنا الله عز وجل من وسوسته وحبائله . . وقد جاء فى الحديث المرسل:

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠.

(٢) نص حديث أخـرجه أبو داود فى السنن، كـتاب الأدب، باب فى الهوى. وأحـمد فى المسند ج ٥ ص ١٩٤. قال الحافظ ابن حجر -تبـعا للعراقى- ويكفينا سكوت أبى داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن.

«إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات»[١].

نسأل الله فقهًا فى دينه يقيمنا على نهجه ويجعلنا من المستمسكين بهديه والمعتصمين بحبله.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعف الجمهور كذا فى المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار للحافظ العراقى ج ٤ ص ٣٨٨ طبعة مصطفى البابى الحلبى. بمصر. وقال الفتنى: «إن الله تعالى يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات» ضعيف (الفتنى: تذكرة الموضوعات ص ١٨٨ طبعة: دار الطباعة المنيرية بمصر ط أولى ١٣٤٣ هـ.

العصبية وعلاجها

إذا كانت العصبية هى المرض المنتشر الذى تبدو مظاهره وأماراته فى ساحة الأمة الإسلامية، وتتركز بين فصائل العمل الإسلامى فى ألوان متعددة أبينها وأوضحها رفض مقولة الاخرين، بل وإصدار الفتاوى بتسفيه آرائهم، وإطلاق العنان للوصول بالفتوى فى بعض الحالات إلى درجة التكفير والتفسيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. فماذا يا ترى الأسباب التى أدت إلى هذه الحالة من عدم الالتزام وعدم التحرج فى إصدار هذه الأحكام الكبيرة والغليظة التى لا ينبغى أن تصدر من مسلم فضلاً عن داعية يشترط فيه أول ما يشترط أمران: التثبت من تكييف الفتوى والحكم الشرعى والحذر من أن يقول على الله بلا علم ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]. والأمر الثانى: استصحاب البصيرة وإدراك الواقع إدراكًا عميقًا يمكن الداعية من دفع الضرر الأشد بالضرر الأخف ودفع أشد المفسدتين بأخفهما على نحو ما فعل الإمام ابن تيمية مع التتار[١] وهكذا، وعلى

---

(١) قال ابن قيم الجوزية: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور الله ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معى، فأنكرت عليه وقلت له: «إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال، فدعهم » (إعلام الموقعين ج ٣ ص ٥ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

ذلك كانت القاعدة الفقهية العظيمة: «إذا اشتدت البلوى وجب التيسير»(١) واستصحاب قول النبى ﷺ لمعاذ وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما حينما بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا»(٢). وقاعدة هذا الدين العظيمة: اليسر لا العسر، ورفع الحرج، يقول الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة ١٨٥] وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] ثم استصحاب تاريخ صدر الإسلام وعهد الراشدين الذى أمرنا أن نقتدى به عند ظهور الخلاف، فقد قال ﷺ: «إنه من يعش منكم يرى بعدى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»(٣)، ولم يحدث فى ذلك العهد ما نراه ونجده من تلك الفوضى الذهنية والنفسية وذلك التشرذم والجرى وراء إصدار الفتاوى والتسرع فيها، بل إن كثيرًا من المشكلات ظهرت فى عهد الخليفة الراشد على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه فعالجها بالرشد العظيم، والفقه المستنير، ولازال طلبة العلم يحفظون عنه قوله حين سئل عن «أهل الجمل»:

---

(١) يتخرج على هذه القاعدة جميع رخص الشرع وتخفيفاته، انظر: السيوطى: الأشباه والنظائر ص ٧٦ - ٧٧ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصى إمامه.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المنسد ج ٤ ص ١٢٦و ١٢٧ وأبو داود فى السنة، باب فى لزوم السنة، والترمذى فى العلم، باب ما جاء فى الأخذ بالسنة، وابن ماجة فى المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، والدرامى فى المقدمة، وقال الترمذى: حسن صحيح.

أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، قيل أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا»[١]، وعندما قالوا له: لا حكم إلا لله، قال: نعم، لا حكم إلا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله ننظر فيكم، ألا إن لكم عندى ثلاث خصال ما كنتم معنا، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم فيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تقاتلوا»[٢]. ولما دفن الموتى فى موقعة الجمل من الجانبين نادى مناديه: «لا يقتل مدبر ولا يذفف -أى يجهز - على جريح»[٣] وقد أُسس فقه البغاة فى الفقه الإسلامى على مسلكه الراشد وقوله الصائب رضى الله عنه. وإذا كانت فصائل العمل الإسلامى تواجه واقعًا جديدًا، وهو ابتعاد الحكم فى ديار الإسلام عن شرع الله وهديه ودخول المجتمعات الإسلامية تحت الرحى الغربية الغليظة بشقيها الرأسمالى والاشتراكى، إذًا فتوصيف هذا الواقع وفهمه، ثم معرفة مقاصد الإسلام فى إصلاح هذا الحال يتوقف على أمرين أساسيين لا بديل عنهما:

أولهما: تحرير محل الخلاف وتبيين الحق الذى يرضى الله ورسوله وذلك لا يكون إلاﺑإعادة الأمر إلى أهله وتحرّيه من أصحابه والراسخين فيه

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عن أبى البخترى -كتاب قتال أهل البغى، باب الدليل على أن الفئة الباغية منهما لا تخرج بالبغى عن تسمية الإسلام.

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عن كثير بن نمير- كتاب قتال أهل البغى، باب القوم يظهرون رأى الخوارج لم يحل بهم قتالهم.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عن مروان بن الحكم -كتاب أهل البغى، إذا فاؤا لم يتبع مدبرهم ولم يقتل أسيرهم ولم يجهز على جريحهم.

ذلك بأنه أمركفر وإيمان وأمر جنة ونار.

والأمر الثانى: رعاية السياسة الشرعية فى إعلان الرأى فهناك من الأمور ما تستلزمه الدعوة من التبشير والتحبيب والإنذار والتخويف وما يجب قضاءً من الفصل والحكم، فلا ينبغى الخلط بين الأمرين.

ومما لاشك فيه أن القضية الآن هى قضية الدعوة وجمع الناس حول دين الله والاعتصام بحبله، ولسنا الآن فى محل القضاء لنصدر الأحكام ونشيعها ونتحزب حولها، إذ أن النبى ﷺ رغم وجود المنافقين فى المدينة وإبدائهم كثيرًا من المواقف التى تغيظ المؤمنين حتى يطلب سيدنا عمر رضى الله عنه من رسول الله ﷺ الإذن بقتل هؤلاء المنافقين فيقول ﷺ: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه[1] ويستنبط الفقهاء رضى الله عنهم من هذا مبدأ سد الذرائع[2]. قال ابن القيم رحمه الله فى هذا الموضوع: «إن النبى ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين -مع كونه مصلحة- لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمدًا يقتل أصحابه، فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومن لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، سورة المنافقين، باب قوله تعالى: **﴿سواء عليهم أستغفرت لهم..﴾** ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلومًا.

(٢) سد الذرائع: منع الجائز لأنه يجر إلى غير الجائز، وبحسب عظم المفسدة فى الممنوع يكون اتساع المنع فى الذريعة وشدته (الشاطبى: الاعتصام ج١ ص ١٢٨ طبعة مطبعة المنار بمصر.

من مصلحة القتل»[1].

إذا فأول أسباب هذه العصبية للرأى أو للطائفة أو الجماعة قلة الفقه وخفته وأخذ الأحكام من ظواهر بعض النصوص دون إعمال النصوص كلها ولهذا قال الله تعالى بشأن مثل هذا الأمر: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فرد الأمر إلى أهل العلم وأهل الاستنباط هو الحلقة المفقودة فى معالجة هذه الظاهرة التى يواجهها العمل الإسلامى.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، فصل فى سد الذرائع ج ٣ ص ١٣٨.

كيف نفلت من آفة العصبية

إن الإفلات أو الانعتاق من آفة العصبية التى عمت وطمت تقتضى تربية نفسية عميقة وتربية علمية صحيحة، حتى ينشأ الناشئ على الإنصاف والتجرد للحق وللحق وحده، وهذا لا يتم إلاّ فى مناخ صحى سليم يعبق فيه شذى الإخلاص والاستقامة على هدى الله، والحذر من هوى النفس وشهواتها، وهذا وأيم الله هو معنى تحرر نية المسلم وتجردها فى كل عمل حتى يكون خالصًا فالحديث الأصل فى هذا: «إنما الأعمال بالنيات»[١] وهو حصر يقتضى الاستغراق، ولذلك كان عمر رضى الله عنه يقول فى دعائه: (اللهم اجعل عملى صالحًا، واجعله لك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا)[٢]. قال الإمام ابن تيمية: (وكثيرًا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دينها له، كما قال شداد بن أوس: يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبى داود السجستانى وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة)[٣] وعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ، ومسلم فى كتابه الإمارة، باب قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات».

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد، زهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ص ١٤٧ طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد العاشر، كتاب علم السلوك ص ٢١٤ - ٢١٥.

أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1].

وكان السلف يقولون: «اثنان لا نعاتبهما: صاحب طمع، وصاحب هوى، فإنهما لا ينزعان[2].

وكانوا يقولون: (تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون)[3] فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم، ووصف بعضهم أحمد بن حنبل فقال: (رحمه الله: فى الدين ماكان أبصره، وعن الدنيا ما كان أصبره، وفى الزهد ما كان أخبره، وبالصالحين ما كان ألحقه، وبالماضين ما كان أشبهه، عرضت عليه الدنيا فأباها، والبدع فنفاها)[4].

والمراد بالتربية النفسية: القصد إلى تزكية النفس حتى يستقر فى الأعماق حب الحق، وإيثاره على كل شئ وسد كل مداخل الهوى والعجب والغرور والكبر.. وما إلى ذلك من آفات القلوب واتباع ذلك بضبط الجوارح فإنها موصلة إلى القلوب، وهذا أمر يقتضى يقظة وجهادًا،

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد، باب ما جاء فى أخذ المال وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد فى المسند ج ٣ ص ٤٥٦ والدارمى فى كتاب الرقاق، باب ما ذئبان جائعان.

(٢) أخرجه ابن وهب عن عمر بن عبد العزيز. كذا فى الاعتصام للشاطبى ج ١ ص ١٥٥.

(٣) أخرجه ابن عبد البر عن ابن المبارك. جامع بيان العلم وفضله، باب ذم الفاجر من العلماء.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٣٦ طبعة مطبعة السعادة بمصر.

ويحتاج مرانًا طويلاً حتى تنقاد النفس وينقمع فيها حب التطلع إلى مناصب الدنيا وشهواتها، وإيثار الذات وما يجرى على صاحبه من بلايا وخيمة، وما يجعله يجرى وراء أهوائه وشهواته على نحو ما بين القرآن الكريم فى ذلك.

يقول الله تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾** [الأعراف: ١٧٥ : ١٧٦].

والخطر على المتدينين يأتى من التلبيس، والتلبيس يأتى من رافدين خطيرين

الأول: الضعف النفسى والمرض القلبى وتراكم هذا الأمر على صاحبه وتبريره لانحرافه، وهذا أمر قد يصيب فريقًا من أهل العلم الذين لم يستقر العلم فى قلوبهم، بمعنى أنه لم يصبح حاكمًا لهم، وأنهم لم يصلوا إلى مرحلة الخشية من الله حتى يؤثروا الحق على أنفسهم، وهؤلاء هم المعنيون بأنهم اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وأنهم نسوا أنفسهم.... وهؤلاء نعوذ بالله منهم.

والثانى: خطر السطحية والسذاجة العلمية بعدم استحكام ملكة الفقه فى نفس بعض من أكرمهم الله بالتدين، وهذه هى الحلقة الخطيرة التى ينفذ منها الشيطان فيزين لكثيرين -عن طريق الحماس وضغط البيئات والمجتمعات، وما تمر به الأمة الإسلامية من محن- التعصب للرأى والانحياز للاجتهاد الطارئ والناتج عن الظروف والأحداث.

أهمية اتباع المنهج العلمى

إن المنهج العلمى هو الطريق الـوحيد لعـلاج الظاهرات المرضيـة التى تكون الأسباب الحقيقية لكثير من المشكلات التى تهيمن على ساحة العمل الإسلامى، وهذا كـما قلت يحتاج إلى تربيـة فكرية ونفسية تنتـج احترام الحقيقة والنزول عندها، والاهتداء بنورها، وضبط نزوات العواطف بلجام العقول، وإلا فقل لى بربك لماذا يهيم الناس بالشعارات؟ وينطلقون خلف الأمانى ويعيشون بأطياف الأحلام الوردية؟!! إن السبب الأصيل وراء ذلك هو تقهقر المنهج العلمى وضموره ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من الشواهد والبينات على هذا التقهقر ما تراه من إطلاق الأحكام فجة بدون تعليل أو برهان، أو الدخول إلى المسـائل دون فهمهـا بالعوامل التى تحفهـا وتؤثر فيها، أو التطوع بإبداء الرأى دون استـيثاق من مكونات هذا الرأى ووضعـه فى مكانه الصحـيح من خارطة الأمـور الحياتيـة، أو عدم القدرة على التحليل والاستقراء إلى غير ذلك.

ومن هنا فإن تنظيم العمل الإسـلامى وجعله يتبع المنهج الذى فطر الله عليه الأشياء، وأقام على أسـاسه النواميس والسنن من الضرورات التى لا تقـوم الحيـاة ولا تنهض الأمم ولا ترتقى إلا على أساسـه وفقـدان المنهج معناه الاضطراب والارتجال والهيام، وكفى بذلك ضـياعًا وتخبطًا وحيرة،

يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧].

إن العشوائية والعبثية فى الخلق غير موجودة وإن الغائية والحكمة لكل شئ هى القائمة والشاهدة؛ لذا فربط الأمور بأسبابها وفهم الحكم والغاية من ورائها هو الطريق الصحيح للاستفادة منها، ولذا فإن العقل الذى يصطحب المنهج الفطرى لكل شئ يهتدى إلى حقيقة الشئ وإلى آثاره والعوامل التى تحركه.. يقول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٣] فالمنهج الصحيح مثلاً فى زراعة أى شئ يكمن فى فهم طبيعة الأرض التى ستزرع، والبذور التى تناسبها والفصول السنوية التى تنمو فيها، والأوقات التى تبدأ الزراعة فيها.. وهكذا، وبدون معرفة هذه الأشياء، واحترام المنهج الذى يوصل إلى ذلك لا تأتى الزراعة بالنتائج المرضية، وهكذا دواليك فى كل شئ.

إن احترام المنهج واتباعه ينتج فى حياة الأمة الاجتهاد والجهاد وهما السبيلان الموصلان إلى أفضل الحلول وإلى استشراف لفضل الله فى كل شئ، وإهمال المنهج وعدم الأخذ به ينتج الجمود والتقليد، وكفاك بهما هبوطًا وضياعًا وتوقفا عن النماء وانسلاخًا من تيار الحياة المتدفق، وقد كان سبب انحطاط الأمة وضعفها ووصولها إلى مرحلة الغثائية التى قال عنها رسول الله ﷺ حين سئل «أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟

قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[1].

إن الخطوة الأولى فى تنظيم العقل الإسلامى، هو تصحيح مساره، وترتيب أولوياته، ومعرفة سنن الله فى كل شئ، واحترام أهل العلم وأصحاب التخصصات، وأخذ كل شئ عن طريق أهله، والبعد عن الخوض فى الأمور بدون علم، أما فوضى التصدى لكل شئ دون معرفة، أو محاولة اعتساف الأمور دون استيثاق وتعلم، فهذا الذى جعل كثيراً من الناس وكثيراًمن الشباب يقتحم أموراً لا يدركها تمامًا، يفتى فى أشياء لا يعرفها حق المعرفة، وهذا ما يجب أن ننقى الساحة الإسلامية منه، ونتعاون على درء أخطاره وأوزاره، ونتحمل العبء فى أن نضع كل شئ فى نصابه، وأن ننبه الغافلين أو السادرين إلى أن الأمر جد خطير وأن مصائر الأمم لا تتحمل الرأى القاصر أو الخاطرة الساذجة أو الانسياق الأعمى، وقد استفاضت فى عصرنا المناهج العملية المتخصصة الدقيقة فى كل شئ فلنحترم ما أمرنا الله به[2]، ولنكن وقافين عند الحق ولنحترم تراث البشرية وخبرتها ولنحسن التأدى للأشياء، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

---

(١) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال «حب الدنيا وكراهية الموت» أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام. وأحمد فى المسند ج ٥ ص ٢٧٨.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

بين المنهج العلمى ونظام التربية

لايمكن للمنهج العلمى أن يأخذ طريقــه الصحيح، ويؤدى دوره الرائد والقائد للحـياة إلا إذا صحبــه وأكده وثبته فى النفـوس نظام تربوى يأخذ الناس باتباع الحق، وينشئهم على أساسه ويعوّدهم الأخذ بمعاييره وموازينه.

وقد جاء القرآن الكريم منهجاً يهدى للتى هى أقوم جمع الله فيه الخير كله،[1] وأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور[2]، وكان حامل هذا المشعل بين الناس والهادى لهم هو محمد ﷺ، ومن ثم تمثل فيه ﷺ وفى أصحابه منهج التفكير الصحيح والالتزام بالسلوك القويم فلا غرو أن تقول عنه السيدة عـائشة حينما سئلت عن خلقــه: «فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن»[3]، وإذا فماذا نريد من نظام التربيــة؟ هو التخلق بخلق القرآن. . لقد خلق الله الإنســان على فطرة مسـتقيـمة، والقرآن والحـديث يؤكدان ذلك: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٠] «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩٠].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم: ١].

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل.

أو ينصرانه أو يمجسانه»[1] ولذلك تكون نظرة الإسلام إلى الإنسان أن الأصل فيه الخير وحب الحق وعلى ذلك يتربى المسلم ويصطحب ذلك فى نظرته لبنى الإنسان أينما كانوا وحيثما حلوا، فهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة، وفى الحديث «الناس بنو آدم وآدم من تراب»[2]، فالأسرة الإنسانية واحدة وإن تعددت الشعوب واختلفت الألسن، تجمعهم صفات واحدة ووشائج واحدة وحاجات واحدة.

ويأتى من هذا المنطلق أن الأمة الإسلامية هى أمة الدعوة والبلاغ والشهادة على البشرية، فيكون دور أبنائها دور الهداة للعالمين، والهادى يحتاج أن يكون ذا نفسية رحبة وخلق كريم وعقل راجح واسع، ومن هنا وصف الله دعوة نبينا ﷺ بقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقوله ﷺ عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة»[3] فأين نحن من هذه التربية؟ إن ذلك يقتضى ألا يشعر المسلم بعقدة النقص من الآخرين ذلك أن قلبه يملؤه الحق ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾ [يونس:٣٢] وأن يشعر أن عنده خيراً كثيراً يجب أن يقدمه للآخرين، وأن هذا الخير يحرك كوامن نفسه ويقض مضجعه

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، سورة الروم، باب لاتبديل لخلق الله، ومسلم فى كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، وقال هذا حديث غريب، وأبوداود فى كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب. وأحمد فى المسند ج٢ص٣١٦.

(٣) أخرجه عبد الله بن أبى عوانة وغيره عن أبى هريرة مرفوعاً. كذا فى تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تفسير سورة الأنبياء.

ويجعله يسعى بدأب لتوصيله على أحسن وجه وأتمه، وذلك قول النبى ﷺ لعلى رضى الله عنه: «لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»[1] ولنتدبر قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

لقد تضاءل هذا الجانب التربوى العظيم فى نفسية المسلم المعاصر، وأصبح ينظر إلى الناس من حوله بالمنظار التاريخى وما حمله التاريخ من أحقاد وفتن ومن تجارب مرة ومعارك رهيبة، ولسنا نقول أن يهمل الإنسان المواريث ولكن ليعلم أن الأصل فى فطرة الإنسان هى الخير لا الشر، وأن الهداية من الله وإنما عليه البلاغ فى حكمة وأدب ورفق فكم قابلنا غربيون يجهلوننا ويجهلون تاريخنا وظروفنا، فلما حدثناهم بالحق والإخلاص جاشت عواطفهم واقتربت نفوسهم، وهدى الله بعضهم إلى الدين الحق..

ومن النظرة إلى الناس أجمعين، إلى النظرة إلى أمة محمد ﷺ، فالمعصوم هو صاحب الحوض، وصاحب الشفاعة، «وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ»[2] وعلى ذلك يكون «كل ابن أدم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد، باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة. ومسلم فى فضائل الصحابة، باب من فضائل على بن أبى طالب.

(٢) من كلام الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، انظر الذهبى: سير أعلام النبلاء - تحقيق شعيب الأرنؤط - ج٨ ص٩٣ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت.

خطَّاء وخير الخطائين التوابون»[1] كما ذكر الحديث، وتكون النظرة التربوية أن كل من أهل لله بالتـوحيـد وشهـد لمحمـد بالرسالة وانتظم فـى الأمة الإسلامـية هو منا ونحن مـنه، نأخذ بيـده إذا أخطأ، ونعينه إذا احـتاج، وننصحه ونقومـه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ونجـعله يحس بقوة الإخوة والموالاة والمؤازرة أينمـا كـان وحـيـثـمـا حل. . . وذلك قـول الله عـز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحـجرات: ١٤] وقـول النبى ﷺ: «المسلم أخو المسلم»[2] فهذه الأخوة العامة والشعور بها والاهتمام بآدابها والحفاظ عليها هى من أولى واجـبات التربية بعـد الإيمان بالله عز وجل. . وقد ذرّ فى المسلمين أفات خطرة وأمراض وبيلة وهى عصبية المذاهب والجماعات. وفات الجميع أن الجماعـة أو المذهب إذا لم يعملا للأمة ويدأبا فى تكوينها فقد سقطا فى مـهاوى العصبية، وهى من الجـاهلية ولا حول ولا قوة إلا بالله. . وعلى ذلك فيـجب على كل مؤمن بالله ورسوله أن يراجع نفـسه وألا يترك للشيطان طريـقاً إلى قلبه، وأن يمضى فى حياته بمشـاعر الأخوة الإسلامية العامة وموالاة المؤمنين ليدخل فى السلم كافة، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة، باب ٤٩ وقال هذا حديث غريب. وابن ماجه فى كتاب الزهد، بـاب ذكر التوبة. والدارمى فى الرقاق، باب فى التـوبة. وأحمد فى المسند ج ٣ص١٩٨.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى كتاب المظالم، باب لايظلم المسلم المسلم. ومسلم فى كتابه البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

١ - السلوك الإسلامى

بين مقتضيات الدعوة فى مرحلة التحول وقواعد التطبيق الشرعى

يخطىء كثير من الشباب المسلم حين يخلطون بين ما تتطلبه آداب الدعوة إلى الله حين يتعرضون لغيرهم من إخوانهم الذين لم يرزقوا دقة الالتزام وحسن الاتباع، وبين القواعد والأصول التى تحكم التطبيق الشرعى من إقامة للقضاء وما يستلزمه من إجراءات ومن دعاوى وبينات، وهذا الخطأ كامن فى اختلاط المفاهيم التى تحكم فقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والضوابط التى أسسها الإسلام فى مصدريه الخالدين الكتاب والسنة ليعرف المسلم الحدود فلا يتعداها، ويعرف القواعد فلا يتجاوزها؛ وقد غدا أمر هذا التعدى والتجاوز ظاهرة خطيرة ترتب عليها من الفتن والمنكرات مايحزن له المؤمنون وما يسر لأجله الشانئون المبغضون، والذين يفرحهم أن تقع المسيرة الإسلامية فى العثرات والمهلكات.

ويصبح هذا الحديث فرضاً يتطلبه واقع الحال، وشأناً هاماً يجب التنبيه عليه والتذكير به، بل ولا أبالغ إذا اقترحت إقامة الندوات والمحاضرات حوله حتى يتجلى ويغدو سلوكاً يلتزم به الكافة والخاصة، وذلك لما يترتب على هذا الأمر من منافع جلى وخيرات كثيرة إذا ما حدث حسن الاستماع والاتباع، وبالتالى إذا خولف ولم يعمل به ستكون له مضار وعواقب

وخيمة تُشوِّه وجه الإسلام الجميل وتصد عن سبيل الله؛ ذلك أن عودة الإخوة الأفغان المجاهدين إلى ديارهم وأهليهم بعد سنوات الهجرة الطويلة، والرباط والجهاد المديد، والتقائهم بإخوانهم وبنى وطنهم الذين عاشوا تحت الحكم الشيوعى المتفلت الملحد، سيجد هؤلاء الإخوة العائدون من مظاهر السلوك وطرائق التعامل ما لايعجبهم وما لايرضيهم من إخوانهم وبنى وطنهم، وهنا ربما سبب الحماس المتعجل والانفعال الطارئ من السلوكيات التى لاتراعى مقتضيات الأحوال ولاتنضبط بقواعد الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. مالا يكون سبيلاً إلى تأليف القلوب واستحالتها وترغيبها فى الالتزام بالإسلام بل يكون رعونة وإيذاء تبعد عن دين الله وتكرِّه فى الاستجابة لأمره وتكون سبباً فى إعانة الشيطان على من يدعونهم.

إن المقام هنا مقام ترغيب وتحبيب للإسلام لامقام قسوة وغلظة فلا ينبغى فيه استعمال أساليب الإكراه والأمر والنهى، وهذا ما أُمرنا به فى محكم الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥] ويقول سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٣، ٣٥].

ويتوجب الصبر والحلم والعـفو فى حالتنا هذه لنخلف مكائد أعدائنا، ونعطى الصـورة الحضـارية الجمـيلة لندخل إلى نفـوس الناس فنطمـئنهم وللخائـفين منهم فنؤمنهم ليسـمعـوا لنا ويأتلفونا، فـقاعـدة الإسلام فى الدعوة إلـى الله هى الترفق والتـيسيـر، يقول النبى ﷺ: «إن اللـه رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»[١]، «إن الرفق لايكـون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلاّ شانه»[٢] ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة البالغة والأسوة الحسنة؛ حين دخل الأعـرابى المسجد وبال فيـه، وقام الصحابة ليـمنعوه، فقال ﷺ: «لاتزرموه» أى لاتمنعوا بولتـه، ثم أمرهم أن يصبوا على البول سجـلاً من ماء، ثم أقبل على البـدوى فعلّمه وقال له: إن هذه المسـاجد لاتصلح لشىء من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل»[٣].

فـعلينا أن ندرك أن مـيدان «الدعـوة إلى الله لايصلح إلاّ لـلمذكـرين

---

(١) أخرجـه البخارى فى كتـاب استـتابة المرتدين والمعاندين، باب إذا عرَّض الذمى وغـيره بسب النبى ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

(٣) عن أنس بن مالك قال: بينما نحن فى المسجـد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد، فـقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَـهْ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لاتصلح لشىء من هذا البَوْل ولا القَذَر، إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ، قال فأمـر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه. أخرجه مسلم فى كتاب الطهـارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسـجد، والبخـارى مختـصرا فى كتـاب الأدب، باب الرفق فى الأمر كله.

برفق، وإلاّ للذين يحسنون الدخول إلى قلوب الناس باللين؛ فقد دخل رجل يعظ المأمون[1] فأغلظ له فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى وأمره بالرفق فقال: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] وصدق الله العظيم إذ قال لنبيه ﷺ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٦][2].

---

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور أبو العباس: سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق، وأحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه، وكان محبا للعفو، ومن كلامه: لو عرف الناس حبى للعفو لتقربوا إلىّ بالجرائم، وأخاف أن لا أوجر فيه، ولد سنة سبعين ومائة، ومات فى رجب فى ثانى عشرة سنة ثمان عشرة ومائتين، وله ثمان وأربعون سنة. انظر الذهبى: سير أعلام النبلاء ج١٠ص٢٧٢.

(٢) أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين - كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - باب آداب المحتسب - ج٢ص٣٣٤.

٢ - السلوك الإسلامى

بين مقتضيات الدعوة فى مرحلة التحول وقواعد التطبيق الشرعى

إن فهم النفس البشرية وما يؤثر فيها من عادات وثقافات، وما يكتنفها من بيئة صالحة أو فاسدة أمر هام لدور الدعاة وأسلوبهم فى الدعوة؛ ولذلك اختير الرسل الكرام من بين أقوامهم، معايشة وتربية، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد استرضع النبى ﷺ من بنى سعد[١]، واستؤجر لرعى الغنم[٢]، وتاجر فى مال خديجة رضى الله عنها وارتحل إلى الشام[٣]، فتأهيل الدعاة وتربيتهم أساس لمباشرة الدعوة. وجاء فى القرآن فى تأهيل سيدنا موسى عليه

---

(١) فى الحديث الشريف «واسترضعت فى بنى سعد بن بكر» رواه ابن إسحاق كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ج٢ص٢٧٥ وفى رواية أخرى: «كانت حاضنتى من بنى سعد ابن بكر» رواه أبو نعيم الحافظ فى الدلائل، كذا فى البداية والنهاية ج٢ص٢٧٥.

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». أخرجه البخارى فى كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قراريط.

(٣) قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها فى مالها تاجرا إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج فى مالها ذاك». كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ج٢ص٢٩٣.

السلام ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه: ٤١، ٤٢] ولم يبدأ أى نبى دعوته إلابعد بلوغ الأشد واستيعاب الحكمة والعلم، قال تعالى فى شأن سيدنا يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وإذاً فعلى الذين يتصدرون للدعوة أن يأخذوا أنفسهم بما ربى الله عز وجل عليه الأنبياء والمرسلين، حتى ينجحوا فى القيام بهذا الواجب الثقيل وهذا العبء العظيم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩].

ولا شك أن المجتمع الأفغانى بما أصابه من تغيرات وتحولات فى الأربعة عشر عاماً يقتضى فهم الثقافات التى انتشرت فيه والمذهبيات التى ذاعت فيه حتى يمكن حسن التأدى إلى قلوب الذين ابتلوا بالثقافة المادية الملحدة، والذين غُسلت أدمغتهم بذلك الفكر فكما قيل: «حبك الشىء يعمى ويصم»[(١)] والعادة محكمة،[(٢)] ومن الخطأ الظن بأن تغيير الناس يأتى بالقسر أو الأوامر وحدها؛ ولهذا قرر القرآن أن الإكراه ليس طريقاً

---

(١) نص حديث أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب، باب فى الهوى، وأحمد فى المسند ج٥ص١٩٤ . وقال الحافظ ابن حجر تبعا للعراقى ويكفينا سكوت أبى داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن. كذا فى كشف الغطاء للعجلونى ج١ص٤١٠ .

(٢) انظر السيوطى: الأشباه والنظائر - القاعدة السادسة - ص٨٩.

إلى القلوب، ولا سبيلاً إلى النفوس، وقال الله عز وجل: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩] وخاطب النبى الكريم ﷺ على سبيل الإنكار فقال: ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩] ثم قرر القاعدة الأصيلة فقال: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وبيّن أن الهداية بيد الله عز وجل وحده: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال لنبيه ﷺ فى شأن عمه: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن هنا يأتى الإطار الدعوى فى المجتمع الإسلامى وهو إطار حرية التذكير بالله وواجب النصح وإشاعة الخير بين الناس، وترك الناس يأخذون من هذا الدين على قدر وسعهم وطاقتهم، فهو مجتمع ينقاد الناس فيه من قلوبهم ومن إرادتهم، وهو أبعد ما يكون من المجتمع البوليسى الذى يهتم بالانضباط الشكلى أو الانقياد الأعمى، وهو مجتمع تعمل فيه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة عملها، ويتسابق الناس فيه إلى الخيرات ويتنافسون فيه حول الصالحات، مظلته الوارفة الأخوة فى الله ورحيقه الصدق والإحسان، وميدان التفاضل فيه بين الناس تقوى الله وخشيته، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

والدعوة فى الإسلام سبيلها التدرج والأخذ باليسر، والابتعاد عن

الحرج يقول الله عز وجل: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد تدرج الإسلام فى تحريم الخمر وتحريم الربا، وعامل الرسول ﷺ الناس بما يناسبهم وبما تقتضيه أحوالهم وبدأ دعوته بالدعوة إلى الإيمان ونزل القرآن المكى ثلاثة عشر عاماً بدون تشريع[١]، وأوصى معاذا رضى الله عنه حين يأتى إلى اليمن أن يتدرج بالناس وقال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم. . .»[٢].

ولايظن ظان أن هذا الأمر من التدرج واليسر قد انتهى أمره بل هو باق ما بقيت السموات والأرض فهو من المحكمات، وهو من أسس فقه الدعوة التى لاينفك عنها وصدق رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[٣].

---

(١) إن دعائم التشريع قامت فى مكة، ثم علا الصرح فى المدينة، وتناول أحوال المجتمع الدقيقة ومتطلبات الدولة الصاعدة، فالوصايا العشر المتضمنة لجملة من شرائع العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة جاءت فى سورة الأنعام المكية، واتسعت دائرتها فى سورة الإسراء المكية، والصلوات الخمس شرعت فى مكة ليلة الإسراء، والزكاة فرضها الله فى مكة كما فى سورة فصلت. . . الخ وإنما قصد شيخنا أن تفاصيل التشريع لم تكن فى مكة.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة، باب لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة، ومسلم فى كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، ومسلم فى كتاب الزكاة، باب النهى عن المسألة.

٣ - السلوك الإسلامى

بين مقتضيات الدعوة فى مرحلة التحول وقواعد التطبيق الشرعى

إن أهم أركان فقه الدعوة إلى الله كيفية توجيه الخطاب إلى الناس، وأن يكون خطاباً مؤثراً يمس أحوالهم وظروفهم، وبالتالى يلفتهم ويحرك مكامن نفوسهم، ويجعلهم يفكرون فيه، ويصيغون إليه بأسماعهم وأفئدتهم، وقضية الإسلام الأولى هى: إخراج الناس من الظلمات إلى النور أى من عبادة أهوائهم إلى عبادة ربهم، وفى هذا الجانب حشد القرآن الكريم البراهين الكونية والمشاهد الحياتية والنفسية، وآيات الله فى الخلق والإبداع مما جعله يحاصر الجاحدين والمنكرين بحيث لايجدون حجة من مثل قول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [٢١، ٢٢]، ولهذا جاءت رسالة الإسلام تتحدى الباطل فى كل صوره وأشكاله، فهو يبدأ بالحقيقة الأولى والأخيرة وهى الله عز وجل ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾ [يونس: ٣٢] ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣] وبعد تأسيس هذه الحقيقة الأولى الأزلية الأبدية التى هى

أصل كل شيء والقائمة على كل شيء وإليها منتهى كل شيء: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] تتفرع الحقائق كلها وتنتظم كل أنشطة الحياة فى منظومة متناسقة تبدأ من نفس الإنسان وهدايته إلى كل ما تمسه يده ويتصل به من حياة أسرية واجتماعية حتى تشمل بنى الإنسان جميعهم وعلاقاتهم سلماً وحرباً إيماناً وكفراً، فسقا وصلاحاً، نفاقاً وإيماناً، وصدق الله العظيم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن هنا يصبح الخطاب الإسلامى متنوعاً حسب مقتضيات الأحوال، وحسب ظروف المجتمعات كما قص القرآن قضايا الأمم على أنبيائهم، وكيف أن كل نبى جاء يعالج المشكلة الكبرى التى شذ بها قومه عن سنن الفطرة كما حدث فى قصة سيدنا لوط وشعيب وموسى عليهم السلام؛ وعلى هذا يصبح دور الدعاة فى مجتمعات المسلمين اليوم أن يبصروا مكامن الخطر فى هذه المجتمعات، ويدركوا ظواهر الانحراف والخلل فيها، ويتقدموا للناس بتحليلها وبيان أسبابها وطرائق علاجها، خاصة وقد فعلت ظروف التخلف فى هذه المجتمعات عملها، وجعلتها تقلد الحضارة الغازية فى كثير من أمراضها، فالمغلوب دائماً يقلد الغالب، وصدق رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبى ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم، ومسلم فى كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

لقد دخلت مجتمعات المسلمين اليوم فى حمأة الصراعات الإقليمية والوطنية، واستطاع الاستعمار الغربى بتقسيمه أوطان المسلمين وإقامة الحدود المصطنعة أن يجعل فى كل بلد أميراً للمسلمين ومنبراً(*)، وغذى ذلك بالمصالح حتى غدا صوت العصبيات أعلى من صوت الإسلام وولاية الوطن أولى من ولاية الله، وانفصمت العروة الوثقى، وسمعنا تبريرات ورأينا سلوكاً شائها يمضى بعيداً عن الاعتصام بحبل الله وينحى جانباً أخوة الإسلام والمصالح الكلية لأمة الإسلام، وفى نفس السياق من يعظم أمر الإمارة ويقلل من شأن الشورى ذلك أنه لا إمارة بغير شورى، فالشورى نسق اجتماعى وقيمة أساسية جاءت فى القرآن أمراً محكماً وأصلاً بين أركان الإسلام، يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ويقول: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٨] لهذا لابد أن ينشط الدعاة فى تدعيم أطر الشورى ووضع الصيغ التى تنفذها حتى تصبح الإطار العلمى لحركة المجتمع الإسلامى كله من أول خلية فيه وهى الأسرة[١] إلى أعلى خلية فيه وهى الحكم، ويدخل فى هذا السياق قضايا الإعلام وما دخل فيه من خلط وانحراف، وما يحتاجه من تصويب وتسديد وكذا قضايا الاقتصاد. . . كل هذه القضايا

(*) وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر.

(١) وذلك امتثالا لقول الله تعالى في شأن فطام الولد: ﴿ **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا** =

وغيرهـا هى قضايا الساعـة والأمة تحتاج من الدعـاة توجيههم ونصـحهم ووضع الصيغ المناسبة لكل أمر من هذه الأمور وكلها من فقه الدعوة وفقه الخطاب. . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

= **وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾[البقرة: ٢٣٣]. قال العلامة الشـيخ رشيد رضا رحمه الله: «إذا كان القـرآن يرشدنا إلى المشاورة فى أدنى أعـمال تربية الولد ولايبـيح لأحد والديه الاستـبداد بذلك دون الآخر، فهـل يبيح لرجل واحد أن يستـبد فى الأمة كلهـا؟ وأمر تربيتها وإقامـة العدل فيها أعسر، ورحمـة الأمراء أو الملوك دون رحمة الوالدين بالولد وأنقص (المنار ج٢ص٤١٤].

٤ - السلوك الإسلامى

بين متطلبات الدعوة فى مرحلة الانتقال وبين التطبيق الشرعى

جاء الإسلام دينًا يحـرر الإرادة البشرية من كل عوامل الظـلم والقسر والإكراه حتى تستطيع أن تختار لنفسها عن اقتناع وصدق، وحتى تتمتع بما أفاء الله عليها من عـقل وتفكير، والطريق إلى الحق الذى جاء به الإسلام هو تلكم الإرادة الصادرة من القلب والوجدان والمعبرة عن التفكير الواعى الفاهم لا ذلك التـفكير المنغلق أو الخـانع لغيره يقـول الله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقـرة: ٢٥٦]، فلا عـجب إذا وجدنا القرآن الـكريم يركز على خطاب العقل وكل أدوات الحس فى الإنسان من سمع وبصر وفؤاد، ويلفت النظر إلى الآيات المبثـوثة فى الآفاق والأنفس ثم يعـتبر الإسلام أهلـية التكليف مترتبـة على وجود العقل وأنهـا تزول بزواله يقول النبى ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يعقل»[1] ذلك أن أعـمـال الإيمان كلهـا إرادية لا تـصلح إلا بالنيـة

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند عن عائشة رضى الله عنها ج ١ ص ١٠٠. وأبو داود فى كتاب الحدود، باب فى المجنون يسرق أو يصيب حدا. وابن ماجه فى كتاب الطلاق، باب =

الصادقة والاختيار المخلص، وكل عمل يشوبه رياء أو نفاق فهو مردود على صاحبه يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، ويقول النبى ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[1] فالإيمان فى حقيقته اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان، ولا يمكن أن تتم هذه الحقيقة الكبرى بالإكراه، ذلك أن الإسلام لا يرضى من المؤمن بدرجة أقل من اليقين يقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

ومن هنا فرض الله الجهاد فى سبيله لإزالة الظلم وتحرير المستضعفين والمقهورين من أسر وضغوط الطغاة والجبابرة أيًا كان لونهم وأيًا كانت وظيفتهم، وسمى القرآن وجود هؤلاء المتكبرين فتنة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ونص على دور الجهاد فى تحرير المستضعفين والمستذلين، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ⑦⑤ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ

= طلاق المعتوه والصغير والنائم. والدارمى فى كتاب الحدود، باب رفع القلم عن ثلاثة. والحاكم فى كتاب البيوع ج ٢ ص ٥٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى. وصححه ابن حبان ١٤٩٦.

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ. ومسلم فى كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية.

﴿فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦]. وكانت العبودية لله هى التعبير الصحيح عن التحرر الكامل من أسر الطاغوت يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وعرف العلماء الطاغوت أنه كل ما عبد من دون الله من وثن أو شخص أو فكر. ولهذا حرم الإسلام الاستضعاف أو قبول الظلم أو الرضى به على كل مؤمن بالله ورسوله وأمر بالهجرة والتحول من أرض الظلم، وجاء النداء الإلهى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وجعل جزاء الذين يقبلون الظلم ويرضون به عذاب جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

وتأسيسًا على هذا فلا يقبل الإسلام فى داخل المجتمع الإسلامى أى كبت للحريات أو تضييق على إرادة الناس وهو الذى جاء بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للأمة كلها وهو من واجب ولاية المؤمن للمؤمن يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقول الصحابى

الجليل جرير البجلى: «بايعت النبى ﷺ على النصح لكل مسلم[1]»، وقد جعل رسول الله الدين كله النصيحة[2]، ولا يمكن أن يزدهر النصح إلا فى مناخ الحرية ولا يتقدم مجتمع وينمو إلا فى جو من الحرية والعدالة، فالاستبداد عدو الفطرة وهو البيئة التى تشيع فيها الرذائل الخلقية من النفاق والتجسس والكذب والتكبر، وما ابتلى مجتمع بالاستبداد إلا حلت فيه الرزايا والمفاسد، والتاريخ القريب والبعيد خير شاهد وأصدق دليل.

لقد رضى الإسلام أن يبقى أهل الكتاب على عقيدتهم ويظل المنافق على نفاقه ما دام يحترم القانون العام وينزل على حكم الإسلام؛ فإذا ناوش عقول الظانين أن حكم الإسلام لأى مجتمع يخدش حرية الإنسان أو كرامته أو يعمل على كبت الحريات والطاقات أو ما إلى ذلك من الأراجيف فظنهم جلى الخطأ والإسلام يرفض تفكيرهم ويمقت ما ذهبوا إليه لأن الإسلام يرفع كل القيم الإنسانية إلى مرتبة التقديس وتاريخ الإسلام خير دليل وأوضح مثال.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ الدين النصيحة. ومسلم - واللفظ له - فى كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) عن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة. وقال البخارى فى كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وقال العينى: إن البخارى رحمه الله ختم كتاب الإيمان بهذا الحديث لأنه عظيم جليل حفيل، عليه مدار الإسلام.. وقيل: يمكن أن يستخرج منه الدليل على جميع الأحكام.

٥ - السلوك الإسلامى

بين متطلبات الدعوة فى مرحلة الانتقال وبين التطبيق الشرعى

لم يأت الإسلام دعوة نظرية، أو فلسفة محلقة مهمتها إشغال الفكر أو خطاب جانب من الحياة وإهمال الجوانب الأخرى، وإنما جاء دينًا يستوعب الحياة كلها بما فيها ومن فيها، ويخاطب الإنسان باعتباره الكائن المستخلف الذى هيأه الله للخلافة، وسلحه بالمواهب التى تمكنه من القيام بحقوقها؛ ولذا اعتنى الإسلام بتوجيه الخطاب للإنسان كله بجميع جوانبه وملكاته ولم يهمل جانبًا لحساب جانب، وكانت دعوته للإنسان أن يدخل فى السلم كافة يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ورفض أن يُفرق الدين أو يُجزأ ذلك أن الإنسان وحدة يتأثر كله بجزء منه، وكانت الازدواجية التى وقعت فيها الحضارة الغربية سببًا فى ضياع الإنسان وانحلاله وشقائه.

ومن هنا سمعنا القرآن الكريم يشنع على من ينحو منحى تجزئة الدين فيقول بعد حديثه عن الفطرة: ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، ويقول: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ويقول: ﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾

[النمل: ٩١]، وينعى على أهل الكتاب تفريقهم الدين فيقول: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥] .

ومشكلة الأمة الإسلامية اليوم هو ذلك التوزع الفكرى والتشتت السلوكى والاستلاب الحضارى ووجود التوجهات النابية عن الإسلام وسلوكه فى الفنون والآداب ووسائل الإعلام. . . إلخ تلك التى تدق كلها على الوتر المادى الحسى وعلى الاستمتاع بالحياة وعلى رفض ما يأتى من عالم الغيب سواء بالخطاب المباشر أو غير المباشر. فنحن إذًا أمام هجمة شرسة تقلل من قيم الإسلام فى السلوك والآداب والعادات وتحاول عزل الإسلام فى جانب ضيق حتى يمكن القضاء عليه إلى الحد الذى سمعنا فيه أصواتًا تنادى بتجفيف منابع الإسلام فى التعليم وإذاعة القرآن الكريم. . ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن مواجهة هذه التيارات إنما يكون بالدعوة الخالصة لله وتحرى الخطاب المقنع الحكيم واستيعاب الواقع بتفاصيله حتى يمكن البرهنة على فساده وعوجه، وقد جعل الله الفطرة الإنسانية محبة للحق منفعلة به وجعل الدين هو العلاج لكل ما تواجهه من مشكلات يقول الله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠].

وتسقط الحوائل والموانع باستدامة الدعاة دعوتهم وعدم اليأس من هداية

الناس وتبيين الحق وتوضيحه إخلاصًا لدين الله وبعدًا عن أى غرض من أغراض الدنيا من جاه أو مال أو عزوة أو سلطان.. وذلك قول الله على لسان أنبيائه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩]، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١] ﴾.

ذلك التجرد هو حجر الزاوية فى الدعوة إلى الله، ويلى ذلك التسلح بوسائل العصر من علم ودراية وأساليب يقتضى معرفة أنواع الخطاب ومقتضى الحال وذلك يتمثل فى هذه المستويات الثلاثة التى تحدث عنها القرآن فى قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهناك قضايا تقتضى الحوار والجدال فلابد من حسن التأدى لها، وقد جادل رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران فى شأن المسيح عليه السلام وباهلهم حتى اعترفوا بالحق وطلبوا منه أن يكف عنهم ونزلت آيات آل عمران من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١].

وإذًا فعلى الدعاة أن يبذلوا الجهد فى أن تكون رسالتهم مؤيدة بالدليل والبرهان مناسبة لمقتضى الحال مخلصة متجردة من الهوى والغرض، وأن يدعوا الناس إلى شريعة الله الكاملة، وأن يدركوا أن مشكلتنا الكبرى هى

---

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

أن يدرك المسلمون أنهم فى حاجة إلى منظومة الإسلام كلها فكرًا وسلوكًا وأخلاقًا وآدابًا ومنهج حياة، وأن هذا الأمر يحتاج مرانًا وتعلمًا وعملاً، وأنه يقتضى الأخذ بتعاليم هذا الدين كله فى النفس وكل جوانب الحياة، وأنه لا يمكن أن يستقيم الإنسان إلا إذا عمل بالإسلام وتغذى به يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** [1]﴾، ويقول: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هود: ١١٢].

والإيمان بطبيعته ينقل صاحبه نقلة كبيرة ويجعله متميزًا على غيره ويمنحه التفوق والتميز وهذا هو المطلوب فى هذه المعركة الحضارية التى تخوضها أمة الإسلام وصدق الله: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** [2]﴾ [ص: ٢٨].

فإلى الدعوة والتفوق الحضارى، والله المستعان على كل خير وبر.

---

(١) فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣.

(٢) قال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص: ٢٨]

هذه الأمة

أخرج الله هذه الأمـة من ظلمات الجـاهلية الأولى إلـى نور الإسلام، وجعلها خير أمة أخـرجت للناس، ومضت تحمل مشاعل الهداية والنور، لم يخل من نورها وهدايتها جيل ولا قبيل، فلا تخلو الأرض من قائم لله بالحق، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وصدق رسوله الكريم: «لا تزال طائفـة من أمتى على الحق ظاهرين لعـدوهم قاهرين لا يضرهم من خـالفهم إلا ما أصـابهم من لأواء حتى يأتيـهم أمر الله وهم كذلك [١]».

ولكن مسيرة هذه الأمة تخـضع لسنن الله عز وجل فى القوة والنهوض إذا ما اسـتمسكت بنواميس الـصلاح والخير وأقـامت سنن الحق والهدى، وتتعـرض للعقاب والأخـذ بالبأساء والضـراء إذا ما فرطت وقـصَّرت عن الأخذ بتلك السنن وهذا تذكير الله لها فى محكم الكتاب: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن**

---

(١) أخرجـه أحمد فى المسند عن أبى أمـامة، وتمامه: «.. قـالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقـدس» المسند ج ٥ ص ٢٦٩ . وأخرجه بألفاظ أخرى البخـارى فى كتاب المناقـب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبـى ﷺ آية. ومسلم فى كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق. والترمذى فى كتاب الفتن: باب ما جاء فى الشام. وابن مـاجه فى المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ.

قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤٠] إذًا فتاريخ هذه الأمة بين مد وجزر وعلو وهبوط وعز ورفعة، وتظل فى الحالتين مستودعًا لهذه الخيرية ونبراسًا للحق - الذى وصفه رب الناس - فى هذه الأرض، فالخير المتجذر فى هذه الأمة أصيل وعميق لا تعدو عليه عوامل البلى ولا عوامل النسيان لأنه يتجدد تجدد الليل والنهار، حتَّى حياة الغيث ينزل من السماء، ومن هنا جعل الله عز وجل التجديد فيها سنة دائمة؛ فقد جاء فى الحديث الشريف: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[(١)]»؛ فإذا انكمشت الخيرية فى شريحة من المجتمع بقيت فى الشريحة الأخرى وبقى مجموع الخير غالبًا وعميقًا فى جذور الشريحة العريضة من الأمة وهو السواد، ذلك أن الحق الذى فى العقيدة والشريعة إذا خالطت بشاشته القلب لا يتركه ولا يتخلى عنه، فهو من سر حفظ الله القرآن الكريم والسنة الشريفة، يقول الله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر: ٩]، ويقول سبحانه لنبيه ﷺ: **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾** [القيامة: ١٦ - ١٩]، وهذا ما رأينا مصداقه فى

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة، والحاكم فى كتاب الفتن والملاحم، ج ٤ ص ٥٢٢، والبيهقى فى المناقب ج ١ ص ١٣٧.

جولات التاريخ، سواء ما حدث حين زحف التتار أو الصليبيين أو فى الهجمة الشرسة الأخيرة للشيوعية الملحدة فى أواسط آسيا أو أوروبا الشرقية، أو هجمة العلمانية فى تركيا والعالم الإسلامى...

ويظل أمر التفوق فى هذه الأمة على غيرها راجحًا وكبيرًا والبون بينها وبين غيرها بعيدًا وعظيمًا بما تملك من حق، وما استقر فى وجدانها من خير رغم مظاهر التضعضع والهبوط، فإن غيرها لا يملك من الحق إلا ظاهره، وإلا شيئًا من سنن التمكين والقوة لا تلبث أن تنكشف وتنهار حين يعتريها الضعف والهزال كما حدث فى الانهيار العظيم لروسيا الشيوعية فذهبت كأمس الدابر وصدق الله: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١]، ونفس البذور والجراثيم تعمل عملها فى تقويض الحضارة المادية الغربية، وما ذلك ببعيد وقد بدأت النذر فى الإيدز وغيره من المهلكات.

ومن هنا فلا ينبغى أن يهتز فى قلوبنا الأمل أو يعترينا يأس أو قنوط إذا تعرضت مسيرة هذه الأمة للزلازل والمحن، فالمحن من طبيعتها أن تمحص الأمم وتثبتها وتوقظها وتعينها، والحدث الأفغانى جاء موقظًا ومبشرًا وآخذًا بيد الأمة إلى العزة والكرامة والنهوض، فإذا حدث له تعثر أو زلزلة فهو خير إن شاء الله وصدق الله العظيم: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والمهم أن نصحح مسيرتنا وننظر فى حلقات الخلل فنغلقها، وبذلك ترشد المسيرة وتمضى على هدى من الله

وبصيـرة وصدق الله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النسـاء: ١٧٥]، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾

[غافر: ٥١].

أمة فى مرحلة التجديد والنهوض

استقبلت الأمـة الإسلامية هلال المحرم للعام السـادس عشر من القرن الخامس عشـر الهجرى بحالة من الألم العمـيق والحزن الشديد، وذلك لما هو نازل فى أقصى بـقاعهـا فى الشيشـان من بلاد القوقـاز المسلم، حيث البربرية الروسيـة موغلة فى التوحش المقزز الذى لا يرعـى حرمة لطفل أو عجوز أو امرأة.. كما تفعل نفس الأفاعـيل القوات الهندوسية فى كشمير المسلمة. أمـا مأساة المسلمين فى البوسنة فـقد فاقت كل تقدير، فـالمؤامرة الغربية ماضية، وتدليل الأمم المتحـدة للصرب البرابرة تجاوز عقل وضمير كل إنسان. أما فلسـطين فالاستعمـار الاستيطانى ماض فى خطتـه بتهويد القدس والاستمـرار فى حفرياته تحت جدران المسجد الأقـصى المبارك أمام أنظار وأعين وبمباركـة الذين نادوا بالمسيرة الخضـراء إلى القدس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ولكن رغم هذه الصورة البـشعة والمؤلمة فالأمـة فى حالة يقظة وبعث، فالصحوة الإسلامية متنامية وهادرة وجياشة، وإذا كان الفاروق عمر رضى الله عنه اختـار الهجرة إلى المدينـة بداية تاريخ هذه الأمة[1] فلكى يعطى الهجرة حـقها كمـعلم من معالم تكوين الأمـة، وما الهجرة إلا تضـحية بالمسكن الهنىء والمال المعين ومـفارقة الصحب والأهل والخـلان إلى حيث

---

(١) انظر خطط المقريزى ١/ ٢٨٥ والكامل ١/ ٣٢٥ وتدريب الراوى ٢٥٦ وسـيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٥٠.

الأرض الجديدة ابتغاء وجه الله ورضوانه على حد تسجيل القرآن العظيم فى قوله: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

[الحشر: ٨].

إن الأمم لا تستعيد حيويتها ولا يتجدد إهابها ولا ينضج أبناؤها إلا وهم فى حالة الوهج والحركة والابتلاء والتفاعل.. وصدق الله: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، يقال: فتنت الذهب فى النار إذا خلصته من زيفه، وهكذا مضت سنة الله عز وجل فى أنبيائه وأوليائه، ومضى تاريخ هذه الأمة أن تُمتحن بأعدائها بما عندهم من كفر وباطل منذ أشرق نور هذه الرسالة، وسجل القرآن ذلك فى مثل رائع وتشبيه مؤثر، يقول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

ومن هنا فقد واجه المسلمون منذ فجر الرسالة كفار قريش وغطفان وغيرهم واليهود فى المدينة وخيبر ثم فارس والروم.. ومضت كتائب الإسلام وقوافله حتى التقت بالبيزنطيين والصليبيين والتتار، وكل مرة يخترق الأعداء حمى الإسلام فى بغداد والقدس، ويهددون معاقل

الإسلام فى القاهرة ودمشق، وتبدأ الأمة مسيرتها بالمصلحين والعلماء والقادة المغاوير من أمثال ابن تيمية وقطز وصلاح الدين وغيرهم، وتستعيد المعاقل والقلاع والديار المقدسة.

ولهذا فلا مجال للأسى المُقعد أو الهم المقيم، وإن العزم القوى والهمة العالية التى تتجاوز الأحزان والآلام إلى حيث العمل الصالح والدعوة الصادقة التى تأخذ بيد الناس فتضعهم على صراط الله المستقيم وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتنقذهم من الحياة الآسنة الفاترة إلى حيوية الإيمان وطهره، وهى الحياة الحقة على حد تعبير القرآن الكريم ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

إذًا فالقضية الأساسية للطلائع المؤمنة والقافلة الحادية هى التركيز على التغيير النفسى والتوجه الحياتى والسلوك الأخلاقى والوعى الراشد والبذل السخى الذى باع كل شىء فى سبيل الله ومرضاته على حد قول الله على لسان خير الخلق محمد ﷺ: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ٩١]، وقوله سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢] ومستلزمات هذا التغيير الفقه النفسى والحياة العبادية الموصولة والخلق الكريم الرحب الذى لا يضيق بالناس، والتأسى بالقدوة الدائمة الرسول الكريم محمد ﷺ فى

دعوته وحياته ومعاملته، فلا تحملنا الظروف وحالات الضغط والحصار أن نغالى أو نتعنت، إذ الاعتدال والتيسير هما أساس هذا الدين: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].. «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين»[1].

إن أهم ما تحتاجه عملية التجديد والبناء هو الوعى والفقه بوضع الأمة وحالتها، ولا يمكن ذلك إلا بالعلم والرسوخ فيه، ولا يتم ذلك إلا باستمرار التزكية والترقى من حال إلى حال، واكتشاف الذات لتُقدم أفضل ما عندها وأفضل ما منحها الله من قدرات وملكات، ثم تمضى مع الأمة وكتائبها حارسة الثغرة التى أقامها الله عليها بصبر ومصابرة ومرابطة، حتى تلقى ربها راضية مرضية امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند ج١ ص٢١٥ وابن ماجه فى كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمى. والنسائى فى السنن، كتاب المناسك، التقاط الحصى.

يقظة أمة.. الوجه الآخر للصورة

على الرغم مما تكابده الأمة الإسلامية على ثرى فلسطين المغتصبة وفى ديار الإسلام فى البوسنة والهرسك وفى وادى كشمير المجاهد، وفى معاناة وجهاد العاملين للإسلام فى داخل المجتمعات الإسلامية، فإن الصورة -على جهامتها وقتامتها- تبدو واعدة مؤملة مشرقة؛ فهذا الشباب الذى يضحى ويستشهد فى الأرض المحتلة، وهذه المقاومة الباسلة ضد جيوش الظلام فى البوسنة، وهذه الدروس التى يلقنها الكشميريون للأوغاد الهندوس.. كلها مقدمات الفجر الصادق لتحرر هذه الأمة واستردادها لعزتها وكرامتها.. وهذا الامتداد العظيم للإسلام فى ديار الغرب وأسره قلوب وعقول الغربيين فى فرنسا وانجلترا وأمريكا إلى درجة أن تكتب جريدة التايمز اللندنية افتتاحية عن انتشار الإسلام بين النساء المثقفات فى انجلترا وأنهن يقلن: إنه الدين المستقيم فى الأخلاق والعلاقات وفى الصلة بين الله وعباده.. ثم هذا الإقبال على الإسلام من جماهير الأمة الإسلامية وامتلاء المساجد بالعباد والمعمرين، وهذه الوفود الغادية الرائحة إلى بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة، وهذه الاتحادات والمنظمات الإسلامية التى تملأ الساحة نشاطًا وعملاً.. كل هذا يمثل صورة من يقظة الأمة الإسلامية وصحوتها الدائبة النشطة.. لذلك فلا مجال لخواطر اليأس أو وساوس الأسى.. فإن درب الإسلام منذ بُعث به الأنبياء والمرسلون وكمل بخاتمهم محمد ﷺ هو درب الجهاد والمجاهدة والمصابرة والمرابطة؛ يقول الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا**

يأتكم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وهو درب ديدنه العمل الصالح ورؤيته تسع الزمان والمكان ولا تقف عند حدود الحوادث والأزمات بل تمتد لتتجاوز هذه الدنيا إلى الدار الآخرة، وتعتبر أن هذه الدنيا دار عمل وبلاء والآخرة دار جزاء وثواب.. والمهم فى هذه الدنيا إحسان العمل وإتقانه واستثمار كل دقيقة ولحظة فيها والإخلاص لله عز وجل، وهذا وعده، ووعده الحق ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن هنا فعلى المؤمنين أن يبذلوا جهدهم ويستفرغوا وسعهم فيما أقامهم الله من أعمال، والمهم إتقان العمل وإحسانه ففى الحديث «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(١) والله يقول: ﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٣٠] والحديث الشريف يقول: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء»(٢)، وقد تفوق علينا غيرنا فى الإنتاج والتنمية بإحسانهم العمل وبذلهم المجهود، وانخفضت إنتاجية الإنسان عندنا إلى درجة معيبة بسبب الأنظمة البيروقراطية والمناخ الفاسد، ولذا فعلى العاملين للإسلام أن يعطوا القدوة الصالحة ويُروا الناس من أنفسهم الطاقة الدائبة المنتجة التى ترجو ثوابها وأجرها من الله عز وجل، فى أى موقع

---

(١) رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة. كذا فى «مجمع الزوائد» ج٤ ص٩٨.

(٢) اخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.

كانوا وعلى أية ثغرة وُجدوا..

إن من المهم أن ندرك أنه لن تتقدم هذه الأمة وتتخطى العقبات وتنتصر على المحن إلاّ إذا نهضت بمجموعها وغيرت ما بنفسها، ذلك أن لله سننًا ونواميس تقوى بها الأمم وتعتز، وقد رأينا فى سيرة المصطفى ﷺ وأصحابه كيف آمنوا وثبتوا وكيف هاجروا وجاهدوا فأمدهم الله بالنصر والتمكين، وكيف ساروا بالدعوة مرحلة بعد مرحلة.. حتى عادوا إلى مكة فاتحين ثم نشروا الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها.. إذًا فالاهتمام بدعوة الأمة كل الأمة إلى الإسلام وتبصيرها بدينها وإحيائها بعقيدة التوحيد الصافية والعبادة الصحيحة والأخلاق الكريمة والانضمام إلى ركب التجديد والعمل الدائب لنصرة الإسلام ليحكم الحياة ويدير دفة جميع الشؤون فى المجتمع، هذا الاهتمام واجب وفرض لا ينبغى أن ننشغل عنه أو نقصر فيه؛ ذلك أن قضايا السياسة وهمومها ومتاعبها تبتلع الوقت وهى متجددة وأمورها فى مجتمعاتنا غير مستقرة.. وقوى التغريب تعمل فى مجتمعاتنا ليل نهار بدأب واستمرار وقد التفتت -للأسف- إلى مناهج التعليم وبرامج إذاعات القرآن وتعمل الآن على تغيير مضامينها وتفريغها من صبغتهاالإسلامية.. ولا يمكن مواجهة ذلك إلاّ بالدعوة عن طريق الدعاة الصادقين وإعدادهم الإعداد الصحيح الذى يمكنهم أن يقدموا الدين ببصيرة واعية وفقه رشيد وحكمة نافذة وذلك لقول الله تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف: ١٠٨] وقوله سبحانه: **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥].

وللأسف الشديد هناك زهد فى الانشغال بذلك وترك توجيه الناس لدعاة بضاعتهم قليلة وعلمهم محدود، فأصبح كلامهم مكررًا وتأثيرهم محدودًا، وليست الدعوة قاصرة على الدعاة فقط بل يشترك فيها المدرس المثقف المتفنن والإعلامى الراشد والفنان الملهم والأب القدوة والأم الحنون. . كل فى دائرته، فالحياة كل لا يتجزأ وكل يؤثر من ناحيته، لذلك فنحن فى حاجة إلى كل صاحب ملكة وطاقة لتقديم الإسلام لأبناء الأمة كل الأمة، وإلى دحض الشبهات وإظهار محاسن الإسلام وتربية الناس على الإيمان، إذًا فكل الوسائل يجب أن تصب فى تنشئة الأجيال الجديدة وإعدادها لحمل رسالة الإسلام، وهذا الإعداد يقتضى تعهدًا مستمرًا وعملاً متواصلاً يعتنى بالطفل وليدًا وصبيًا وفتى وشابًا، فكل مرحلة لها ما يناسبها «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟»[1].

إن التربية أمر خطير يتوقف عليه مستقبل الأمة، وإمدادها بالكوادر ذات الكفاءة العالية والمقدرة الفائقة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فهل نلتفت لهذا الأمر ونعطيه حقه ونحض القادرين على التوجه إليه وصرف الهمة كل الهمة له!!!؟.

---

(١) من كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه، أخرجه البخارى فى كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا. وفى صحيح مسلم أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» أخرجه مسلم فى المقدمة، باب النهى عن الحديث بكل ما سمع.

الحصار الشامل

تمر الأمة الإسلامية بمرحلة لم تشهد مثلها فى تاريخها من قبل إلا فى مرحلة الدعوة الأولى، ففى كل محنها السابقة كانت تعتمد فى حشد قوتها واستعادة عافيتها على دينها الذى أنعم الله به عليها، فعلت ذلك مع الصليبيين بقيادة نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس، وكان حاشية هؤلاء هم العلماء والصالحون وفعلت ذلك مع التتار، فقد كانت صيحة قطز فى الجيش المدافع فى عين جالوت: «واإسلاماه».

أما فى المرحلة الحالية فقد رأينا عجبًا يحار فيه كل كيِّس عاقل ومواطن شريف، فضلاً عن المؤمن الداعى والمسلم الملتزم.. فالغرب بدهاقنته وزعمائه يحذرون من الصحوة الإسلامية، ويصدرون التصريحات ضد ما أسموه الأصولية الإسلامية، ويرحبون بكل من يهاجم الإسلام ورسول الإسلام من أمثال سلمان رشدى، وتسليمة نسرين الكاتبة البنغالية، ويخلعون عليهما النياشين ويقيمون لهما الاحتفالات فى فرنسا ولندن والبلاد الإسكندنافية..

وكان الأمل أن ترد أنظمتنا وهيئاتنا الرسمية فى العالم الإسلامى على هذا الغثاء وبيان ما فى الإسلام من رحمة وعدالة ومواساة وسماحة لكل بنى الإنسان.. إذ أنها تمثل هذه الأمة، والإسلام بالنسبة لهذه الأمة كالسويداء من القلب، ويدين به القاصى والدانى.. أما أن تتحول بعض هذه الأنظمة إلى منابذة الدعوة إلى الإسلام، وتعمل على التضييق على

دعاته والعاملين له. . فهذا أمر لم يحدث إلا فى هذا القرن الذى نجحت فيه الغزوة الغربية فى العالم الإسلامى حينما استطاع الاختلال الثقافى والفكرى أن يُصدّر العلمانيين وأن يضعهم فى القمة، وبالتالى رأينا التفنن فى حصار الدعوة الإسلامية، ومحاولة إقصائها عن كل ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

والذى يرقب الوضع المحزن فى العالم الإسلامى يجد تناغمًا فى هذه السياسة، بل لقد وصل الأمر إلى اختراق مناهج التعليم والخضوع للمخطط الصهيونى بتغيير ما فى كتب التاريخ والتربية الدينية مما يتعلق باليهود والجهاد، وازداد الأمر هولاً حينما خرجت أصوات من العالم الإسلامى تدعو إلى تجفيف الينابيع، فليس فى الإسلام اعتدال أو تطرف، فالإسلام كله تطرف. .

ثم جاءت قاصمة الظهر حينما وصل الأمر إلى محاصرة العمل الخيرى والإغاثى ومحاولة وقفه والتضييق عليه ومنع العاملين فى إغاثة اليتامى والأرامل واللاجئين من تحويل مخصصات أهل الخير لهم. . إنه حصار لم يحدث إلا للدعوة الأولى حينما حاصرت قريش رسول الله ﷺ فى شعب بنى هاشم، وخرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، وشق الصحيفة الظالمة نفر من أباة العرب حينما رأوا ما حدث لبنى هاشم من الجوع والمخمصة بعد ثلاث سنين.

إن هذا الحصار بُشرى خير لهذه الأمة، حتى ترى بنفسها كيف وصل الاستبداد فى ظلمه وعسفه وكيده وفى تبعيته وإذلاله؟! وكيف هان هؤلاء

المستبدون على أنفسهم فأصبحوا أداة طيعة فى يد عدوهم وغاصبيهم وكيف وصلت الدنية بهم أن يحاصروا العون والبذل للمجاهدين فى أرض الأقصى المبارك وكل أرض فيها دفاع عن المساجد والحرمات والأعراض..؟!

إن هذا الحصار سمة خير وبركة على هذه الأمة حتى يتميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، وحتى يُعرف جند الرحمن من جند الشيطان، وأولياء الله من أولياء الكفار، ذلك أن الله عز وجل خلق الإنسان واستخلفه ليبتليه فى هذا الحياة الدنيا، وجعل سنة الصراع بين الحق والباطل سنة دائمة إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وأرسل رسله يحملون رسالات الحق ليبلغوها للناس أمة بعد أمة، وقرنًا بعد قرن، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ فكان شاهدًا على أمته، ثم أصبحت أمته شاهدة على الناس من بعده: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. واستحقت هذه الأمة الخيرية على الناس بذلك. وصدق الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

واقعنا المرّ ودورنا تجاهه

كلما ازداد الشباب معرفة بواقع أمتهم وبالحالة التى تعيشها هالتهم المسافة التى تفصل بين الواقع والأمل: ذلك أن الرؤية الأولية لم تكن بالعمق ولا بالدقة التى يصلون إليها بعد امتحان الواقع واختباره والتفاعل الحر معه، والأمة كائن حى تعمل كل العوامل فيه وتؤثر فى إصلاحه أو إفساده، وتؤدى وتثمر نتائجها سواء كانت إيجابية أو سلبية، فالحسنة تأتى بالحسنة، والسيئة تتبعها السيئة.. هذه قوانين الحق سبحانه وتعالى لا تتخلف ولا تتبدل يقول الله عز وجل: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨] ويقول عز من قائل: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص: ٥٨].

وبناء الأمم عملية كبيرة هائلة تحتاج تغييرًا فى كل شىء وتبديلاً فى كل سنن الفساد والضياع والانحطاط وأن يحل محلها سنن الصلاح والإحسان فتتألف القلوب على الحق وتحيا العزائم والهمم بعمل الخيرات وفعل الصالحات وقد أنيط هذا العمل الهائل بالأنبياء والمرسلين على مرّ التاريخ والعصور، ثم جاء خاتم الأنبياء والمرسلين ليخط بجهده وجهاده والذين

آمنوا معه الوسائل والسبل التى تتبع فى علاج أى واقع مريض، ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقد عمد رسول الله ﷺ إلى تغيير المجتمع الجاهلى من أعماق النفس الجاهلية وبدّل وجهتها وغيّر أخلاقها وضبط عواطفها وانفعالاتها، وركبها تركيبًا جديدًا وجعلهم جميعًا أعضاء أحياء فى أمة واحدة تدين لله عز وجل بالعبودية وله بالإمامة والقدوة، ولذلك مكنهم الله وبدل خوفهم أمنًا وجعلهم أئمة وأورثهم فارس والروم.

ولهذا ستظل القضية بالنسبة لنا نحن أبناء الأمة الإسلامية هى قضية التغيير التى تبدأ من نفوسنا وتحول إرادتنا وعزائمنا من الخمود والجمود والانحطاط والسفاسف إلى الاجتهاد والجهاد ومعالى الأمور وعظائم الأعمال.. إنه القانون الأزلى الخالد فى قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١] وكل تغيير يؤدى نتائجه على حسب النسبة التى يتم بها.

والخطورة أن بعض الشباب يظن أن الحماس الفائر والعاطفة الجياشة والاندفاع الذى لا يلوى على شىء.. كل ذلك يكفى لتحقيق الآمال وإقامة النهضات وتعويض الأمة عما فات، وينسون فى غمرة الأحداث ولهيب المشكلات أن القضية كل متكامل: من حسن أداء الفرد لواجبه فى موقعه، واتساقه مع أخيه ثم تآلف الجميع فى صف واحد متناغم ليؤدى

العمل ثمرته ويأتى بنتائجه. إن المشكلة التى نواجهها فى حركة أمتنا تبدأ من الفرد وتنتهى بالجماعات العاملة والناهضة.

إن الترتيب العقلى والعاطفى والهمة النفسية والإرادة التى يجب أن تشخذ فى الفرد تحتاج إعداداً موازياً للمعركة التى تخوضها الأمة؛ فإذا عرف الفرد الساحة الفكرية العامة واكتشف قدراته ومهاراته، وعملت الجماعة العاملة إلى توظيف هذه الطاقة فى المكان المناسب، أمكن أن يؤدى الفرد دوره ويحقق ذاته، أما ذلك الهيام والضياع فلا فائدة من ورائه إلاّ الإحباط والقلق والضيق ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

إن الفوضى التى نراها فى الساحة الإسلامية والأحكام العامة المبتسرة والقلق البادى على الوجوه سببه وأساسه وعلته أننا لا نريد أن ننزل على القوانين والسنن التى سنها الله عز وجل وهى تقتضينا أن نحسن التأدى لكل أمر نريده ونأخذ له أهبته ونهيئ الجماعات التى تستطيع أن تؤديه بإحسان ولا تتخلف عن ذلك أى شريحة من شرائح العمل سواء كان تعليمياً أو جهادياً أو سياسياً. قد يوجد أفراد عندهم رغبات خيرة وحماس طيب، ولكن إذا لم يضمهم عقد منتظم وقيادة حسنة تصنع بهم الخير وتؤدى بهم الواجب ضاعت هذه الرغبات وتبخر هذا الحماس. إن تعانق السنن الذاتية فى الفرد مع السنن الجماعية أمر لازم وفرض حتم، لذلك أمرنا بالاعتصام بحبل الله ونهينا عن التنازع والتفرق(1) وخوطبنا

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]

خطاب التكليف خطابًا جماعيًا فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ٧١].

ومن هنا ينبغى أن ندرك أن قطع المسافة بين واقعنا المر وغدنا الباسم هو منوط بقدرتنا على التغيير وإيجاد جماعات الاستخلاف التى تتحقق فيها سنن الله عز وجل فى التمكين والتأييد وصدق الله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

هل من سبيل لمغالبة العقبات التى تواجه الأمة (١)

أفرزت معركة التحرير الكبرى التى تواجه الأمة الإسلامية فى هذا القرن مجموعة من العقبات والمفارقات بعضها قدم إليها من خارجها، وبعضها الآخر من داخلها بسبب التخلف والانحطاط والجمود الذى ران عليها ردحًا من الزمن، وعلينا نحن العاملين للإسلام والمجاهدين فى سبيله أن نتصدى لهذه العقبات والمفارقات ونحاول مواجهتها والتصدى لها، حتى يمكن أن نجتازها ونتقدم بالأمة للأمام طلبًا للنصر والتمكين، فإن لله سننًا لا تتخلف ولا تحيد ولا تجامل ولا تحابى، وما لم نأخذ بها ونعض عليها سنظل نراوح مكاننا، ويمضى غيرنا ويتركونا نندب حظنا، ولا ينفعنا الندم..

من العقبات الكبرى التى تواجه الأمة فى كل مكان اختلاف الأفكار وتعدد الصيحات فى القضايا المصيرية والأمور الأساسية، فبينما نجد الغرب قد اتفقت كلمته حول النظام الذى يسير به المجتمع، والقانون الذى يحتكم إليه الأفراد، والإجراءات التى بها يُتخذ القرار، نجدنا فى العالم الإسلامى مختلفين حول الصيغة التى يقوم عليها بناؤنا الحضارى، ففريق منا بسبب الغزو الفكرى والتأثر بالحضارة الغربية قد تبنى إبعاد الإسلام وقيمه عن الصيغة التى على أساسها تبنى الأمة، ويا ليت هذا الفريق احتكم إلى ضمير الأمة كما يدعى وترك الأمر للنتيجة التى ترضاها والتى

تصوت عليها، ولكنه راح يفرض رأيه واتجاهه بالحديد والنار، ويظاهر عليها بالإعلام وبكل وسائل التأثير ومضى يقيم المؤسسات على أساس الصيغة الغربية فى مجتمات المسلمين.

هذه العقبة الكبرى وهى اختلاف لغة الحوار وأساس التفكير بيننا وبين العلمانيين تحتاج منا أن نعرض للقضايا الكبرى التى تؤدى إلى التوحد على الأساسيات التى لا يختلف عليها من فى قلبه أدنى ذرة من وفاء للوطن وحب له.. تلك القضايا هى: احترام كرامة الإنسان وحريته، تقديس العدالة القانونية والاجتماعية وعدم المساس بكل ما يؤكدها ويوصل الحقوق لأصحابها، تقديس العمل والانتاج والسعى إلى الرزق الحلال والضرب بيد القانون على كل وسائل الكسب الخبيث من الرشوة والمحسوبية والاستغلال، الوقوف يدًا واحدة فى تحرير أوطاننا ووحدة ترابها ضد الغاصبين والمحتلين، إغلاق كل الأبواب والسبل التى تفسد الأخلاق وتدمر السلوك العام.. وهكذا على الإسلاميين أن ينادوا العلمانيين والذين استلبوا فى أفكارهم وأخلاقهم بهذه الأساسيات وألا يملوا من عرضها وأن يجمعوا رأى الأمة حولها، وعلينا أن نترك الفرعيات حتى نصل إلى الأساسيات، وعلينا أن يكون قلبنا مفتوحًا وتعاملنا سمحًا حتى يمكن أن نوحد كلمة الأمة فى الاتجاهات الأساسية التى نهىء بها الأمة لأن تحكم بشريعة ربها.

وهذا يتطلب منا أن نحاول ممارسة منظومة التعامل الإسلامى التى أمرنا الله بها وتعبدنا بها ألا وهى تطبيق الشورى والالتزام بها وألا تكون مجرد أمر وعظى تنطق به ألسنتُنا؛ ذلك أن الشورى تقتضى تربية نفسية تجعل

الإنسان يقهر هواه ويخالف شهوته وأن يقف مع الحق ويلتزم به، فقد أمرنا أن نسأل أهل الذكر، وأمرنا أن نستجيب للأمر بالمعروف وننتهى عن المنكر إذا نُصحنا؛ وقد تدهور مستوى الشورى بيننا، وضخمنا من قضية السمع والطاعة على حساب الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

إن قضية الشورى وما تستوجبه من التدارس والحوار المتبادل تتصل بقضية الاتفاق على الأساسيات وبين التيارات الأخرى، ذلك أن غيرك لا يقبل عليك إلا إذا وجد عندك الاستعداد للاستماع له والإنصات إليه واحترام رأيه، ومن هنا فعلينا أن نغير من أنفسنا وعاداتنا وأخلاقنا حتى نتصف بصفات المؤمنين الذين جعل الله واسطة عقد صفاتهم «الشورى» يقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٨].

إن مسئولية العاملين للإسلام كبيرة ومهمتهم ثقيلة، وهذه إحدى قضاياهم الأساسية، وعليهم أن يسعوا للتغلب عليها، فإذا انتصروا على أنفسهم فأحرى أن ينصرهم الله ويثبت أقدامهم وهو خير الناصرين.

هل من سبيل لمغالبة العقبات
التى تواجه الأمة (٢)

قلنا: إن من العقبات الكبرى التى تواجه الأمة فى كل مكان اختلاف الأفكار وتعدد الصيحات فى القضايا المصيرية والأمور الأساسية، وقلنا إن أهم شىء نواجه به هذا الوضع وتلك الحالة أن توجد صيغة مشتركة للحوار ولغة تسع اختلاف الآراء وتحدد وجهات النظر، وقلت إن الأساسيات يجب أن تجلى وتكرر حتى لا يكون حولها غموض ولا إبهام، ولا خوف ولا ريبة ألا وهى: الحقوق الفطرية للإنسان التى لا يختلف حولها اثنان، ولا يتناطح فيها عنزان وهى مسلمات أساسية يعلى الإسلام أمرها ويقاتل من أجلها ألا وهى الحريات الأساسية والعدالة القانونية والاجتماعية وتكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون؛ تلك أمور يجب إعلاء أمرها ورفع راياتها فقد جاءت المقاصد الشرعية الكلية تعبر عن ذلك ألا وهى: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وكل ما يحفظ ذلك من جلب المصلحة ودفع المفسدة، ويدفع التعارض بينها بارتكاب أخف الضررين ودفع أشد المفسدتين.

ولقد جاء الإسلام يعلى من شأن حرية الإنسان والحفاظ على كرامته وتحريره من عبودية الطواغيت ليخلى بينه وبين الحق فيختار ما يشاء وعلى أساس اختياره تكون مسئوليته وحسابه فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩] وكان الجهاد فى

الإسلام لإعلاء كلمة الله حتى لا يكون هناك إكراه أو ظلم أو قسر؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦].

ومن هنا كان الاختيار والاقناع هو السبيل الوحيد لهذا الدين، وكان الخطاب للمخالفين قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] وقد مضت كلمة عمر رضى الله عنه فى العالمين لواليه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[١] .

فمعركة الحرية الحقيقية فى العالم هى واجب الأمة الإسلامية وحينما اختفى دور الأمة الإسلامية عم الظلام وسيطر الاستعمار واقتسم الظالمون العالم، ووضعوا الأمة الإسلامية ضمن مناطق نفوذهم، وساموها سوء العذاب، ولذا كان على الأمة وعلى العاملين فى حقل الإسلام أن يعرفوا طبيعة المعركة التى يجاهدون فيها، والوسائل التى يجب أن يغالبوا بها عدوهم، عليهم أن يعرفوا أنها معركة ذات شقين: معركة داخلية لتحرير

(١) ابن الجوزى: سيرة عمر بن الخطاب -الباب الثامن والثلاثون فى ذكر عدله فى رعيته - ص٨٦ طبعة المكتبة التجارية بمصر.

أنفسهم وللحصول على حقوقهم، حتى ينشأ المسلم حرًا كريمًا فى وطنه، ومعركة خارجية ضد القوى المتربصة والطامعة والتى تدعم العملاء والأتباع وتفرض حكمهم وسيطرتهم.

وكلا المعركتين تحتاج وحدة وتنسيقًا وترتيبًا للأولويات، فمن أولويات المعركة الداخلية تأسيس أوليات: الوعى بالواقع، ومعرفة الوسائل المؤثرة فى هذا الواقع المعاش، ودراسة البدائل التى تصلح هذا الواقع المعاش بحيث يمكن تجييش الرأى العام وجمع الأمة على هذه البدائل وتقديم المثل والنموذج لذلك. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بأهل الخبرة فى كل تخصص يقول الله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٧].

لقد مضت مرحلة الشعارات العامة، وها نحن نواجه واقعًا معاشًا فيما يتعلق بآليات ووسائل صناعة القرار الذى يمكن الاجتماع حوله والاتفاق عليه، وها نحن نرى قصورنا فى عدم قدرتنا على ترتيب الأوراق، واستعمال أسلوب الحوار الداخلى بيننا كأطراف أو كمجموعات، وهذا يقتضى مزيدًا من الدراسة ويقتضى منا مزيدًا من العطاء ومزيدًا من بذل الجهد لمحاولة التغلب على وسائل الفرقة وأسباب النزاع والخلاف، واستخلاص رؤية مستقبلية من وسط ذلك الزحام الهائل من القوى الضاغطة من كل جانب.

علينا فى هذه المرحلة الحرجة أن نزداد اعتصامًا بالله عز وجل ونخلص النية والعمل له وندعوه ونلح عليه ونتضرع له أن يهدينا من أمرنا رشدنا، ثم نعى أنفسنا وقدراتنا ونعى الظروف من حولنا ثم نتدارسها ونتبادل الرأى حولها على أوسع مدى وبأفضل أسلوب، ثم نرتبها ونخلص

بأفضلهـا تحقيقًـا للسياسـة الشرعيـة التى أمرنا فيهـا بإعمال أمـر المصالح والمفاسد وتفضيل المصلحة الكلية الضـرورية على المصالح الجزئية والفرعية وتقديم درء أشـد المفسدتين بأخفـهما. . وإعـمال فقه المراحل، وفـهم ما يفرضه عـموم البلوى من تيسير وتخفـيف، والتأسى برسول الله ﷺ فى حربه وسلـمه ومعـاهداته وتدرجه حـتى مكن الله له فى الأرض، ونحن بعون الله على أثره.

السنن الكونية الحاكمة

أقام الله عز وجل الحياة علـى سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، وقـد قص الله علينا فى محكم كتابه قـصص الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم خاتمهم وإمـامهم محمد ﷺ؛ لنتـعمق فى وعينا وفى حـياتنا طريقـتهم وسـيرتهم ونتـخذ منهـا العبـرة، ونقتـفى سننهم وأساليبهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

والمطلوب فى هذا الصراع وهذا التـدافع أن نفقهه، ونتعـامل معه على ضوء سنن الله التى خطها لنا هؤلاء المعـصومون: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، وأن ندرك أن الحضارة دورات، وأن الأمم تمر بهذه الدورات فتصل إلى مستوى متدن من الانحطاط والضعف إلى درجة يحار فيها الحليم ويذوب فيها قلب المؤمن، والخط البيانى للتاريخ البشرى والحضارى يؤكد ذلك، وما حدث لهذه الأمة فى مسيرتها خير شاهد وأصدق دليل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٠].

فاستصحاب التاريخ، ومعرفة واقع الأمة وما هى فيه من ضعف وتشتت كما قال النبى ﷺ «غثاء كغثاء السيل»[1]، وما عليه أعداؤها من قوة وتمكن وقدرة وتخطيط، وما تعيشه الأمة من حاجة بسبب أوضاعها المهترئة واعتماد المتحكمين فيها على غيرها فى الاقتصاد والصناعة والدفاع. . أمر لا يخفى على أحد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذًا فالأمة فى حاجة إلى تجديد وإلى إعادة بناء، وهذا أمر يقتضى تغيير النفوس والاتجاهات امتثالاً لأمر الله عز وجل وما فعله النبى ﷺ مع العرب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام وأحمد فى المسند ج٥ ص٢٧٨.

وقد جعل الله سنة التجديد سنة قائمة مستمرة، ففى الحديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[١]، وأمر التغيير هذا مرتبط بحسن البلاغ ودوام التذكير وفقه الأوبة إلى الله عز وجل والاستمساك بشريعته والاعتصام بأمره، وقد استفرغ فيه الرسول الكريم وصحابته الجهد والوسع، وتحملوا الأذى والحصار والهجرة حتى مكنهم الله عز وجل من إقامة أول مجتمع إسلامى فى المدينة، وما تأسيس دار الأرقم فى مكة وتعهد النبى الكريم لأصحابه، وتنزل القرآن منجمًا ومتدرجًا إلا نموذجًا لهذا التغيير المطلوب، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يتعهدنا بالموعظة مخافة السآمة علينا»[٢].

إن إعداد الأمة من جديد لتحمل رسالة ربها وتقوم بدورها أمر بالغ الأهمية عظيم الأثر، وهذا أمر يقتضى وقتًا طويلاً وعملاً دائبًا، فما أسهل أن تبنى بيتًا أو مصنعًا، ولكن ما أصعب أن تعدّ رجلاً كفؤا يحمل الأمانة ويبلغ الرسالة فى خُلق ووعى وشجاعة.. وها هى مؤسسات الأمة كلها تشتكى قلة الأقوياء والأمناء والحفظة العلماء: ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]، ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥].

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة. والحاكم فى كتاب الفتن والملاحم ج٤ ص٥٢٢. والبيهقى فى المناقب ج١ ص١٣٧.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» باب كيفية الرتبة فى أخذ العلم.

ومن هنا فإن إعداد الكوادر وبناء القاعدة العريضة التى تسلم بشرع الله وتطيع أوامره؛ مطلب أساسى، وهذا يقتضى -كما قلت آنفًا- جهدًا متواصلاً وصبرًا ودأبًا، وقد أثبتت تجارب المؤسسات الاقتصادية الإسلامية والتعليمية والاجتماعية ذلك، فمعرفة المرحلة والتقيد بها وعدم القفز إلى غيرها شىء أساسى وأمر تستوجبه أوامر الشريعة ونواميس الكون وسننه، ولذا فإن التمكين يأتى نتيجة لهذا العمل لا وسيلة له، فإن النبى ﷺ وصحابته بنوا الأمة من القاعدة، وما المهاجرون والأنصار والمؤاخاة إلا خير مثال على ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

لذلك فالخلط بين مقام الدعوة والتربية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد بالسيف والسنان -وهو مقام الولاية العامة - وتطويع الأحكام الشرعية للاجتهاد الحماسى والإسراف فى التسويغ والتبرير؛ أمر لا يقبله الشرع.

الأمة الإسلامية

أزمتها وخلاصها

جاء الهجوم الأوروبى على العالم الإسلامى معاكسًا لانتشار الإسلام ووصوله إلى قلب أوروبا من محورين أساسيين: محور الأندلس فى عصور الإسلام الأولى، ومحور العثمانيين فى عصور الإسلام التالية حينما حاصر العثمانيون فينا فى سنة ١٦٨٣م، وبينما لم تنجح الغزوة الصليبية التى بدأت فى ١٠٩٦م وانتهت بالإخفاق واليأس فى ١٢٩١م، فقد التف الغزو الأوروبى للعالم الإسلامى وحاول أن يقترب فى الغزوة الحديثة بتؤدة وتدرج فلم يأت فى شكل هجمة معبأة كما حدث فى الحروب الصليبية بل ظل يرقب رياح الضعف والركود، وهى تأخذ طريقها إلى قلب العالم الإسلامى ومؤسساته العسكرية والعلمية والاجتماعية فى الوقت الذى انطلقت قوى النهوض والبحث العلمى والتقدم التقنى تأخذ طريقها فى أوروبا وديار الغرب. . ودارت الرحى، واختل ميزان التفوق، وأخذت الأمراض بخناق العالم الإسلامى فأقعدته عن النهوض وأحوجته أن يطلب البُرء ممن لا يملك العلاج، ومن يُكن له الخبال والنكال، وكانت قمة المأساة فى هذا التدهور الذى أصاب الأمة أن أحيط بالشريعة فى عرينها، وحيل بينها وبين أتباعها وذلك من طريقين:-

الأول: الجمود وتوقف الاجتهاد وذلك حينما عمد الأتراك بعد تأسيس

الدولة العثمانية إلى جمع شروح المذهب الحنفى وتعليقات أشهر علمائه وتعديلها بشكل نهائى لا يتغير ولا يتبدل وصُنِّفَتْ فى كتابين هما: -كتاب (اللآلئ) و(مجمع البحار)، وكان هذا الإجراء من أخطر الإجراءات التى كرست ركود الفقه وعدم قدرته على استيعاب الظروف المتغيرة والطارئة والتى تحتاج اجتهادًا مستمرًا وتجديدًا دائمًا لإمداد نهر الحياة المتدفق برحيق الشريعة وخيرها.

الثانى: ونتيجة لمناخ التضعضع والضعف وتحت ضغط القوى الغربية الاستعمارية، فقد غُلبت الدولة على أمرها وأفسحت المجال لدخول القوانين الوضعية كى تعمل على إدارة التغيير الاجتماعى فى الاتجاه التغريبى.. وكان هذا قمة العجز والهوان، فكان أن صدر قانون الجزاء المبنى على القانون الفرنسى فى سنة ١٨٤٠م، وفى سنة ١٨٥٠م صدر قانون التجارة وفى سنة ١٨٦١م أنشئت المحاكم التجارية لتنفيذ أحكام هذا القانون وامتد السيل وأخذت معظم البلاد العربية الخاضعة للحكم العثمانى بهذه القوانين الأوروبية وبذلك وصل الضغط السياسى الغربى على الدولة العثمانية غايته، فها هو يدير دفَّة التغيير من خلال المؤسسات المؤثرة فى بنيان المجتمع، وظلت عملية محاصرة الشريعة دائبة ومستمرة فى اتجاه تقليصها بقية القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين إلى أن ظفر الغرب بإكمال غزوته على يد مصطفى كمال أتاتورك بإقدامه على جريمته الشنعاء بإعلان علمانية تركيا بالحديد والنار، وقطعها عن الإسلام والمسلمين على نحو ما هو معروف ومشهور، وما زال الشعب التركى المسلم يرزح وطأة هذه الجريمة النكراء ويقدم التضحيات تلو التضحيات ولا

تُترك له أبسط مبادئ حقوق الإنسان فى ممارسة آداب عقيدته وشريعته ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبذلك أصبح التيار العلمانى فى كثير من بلاد العالم الإسلامى يقبض على مقاليد الأمـور ويوجه دفتها ويحاول بدهاء وخبث عـجيبين الحيلولة دون عودة الأمة الإسـلامية إلى حياض الشريعـة الفياضة والتمـتع بعدلها الوارف، وما المحاولات المستمرة فى اتجـاه تقليص المحاكم الشرعية وقانون الأسرة عنا ببعيد.

النتائج التى تمخضت على دخول القوانين الوضعية:

لقد أسفرت المعركة السيـاسية التى قادها الغرب بإحكام -وكان إحدى نتائجها فرض القوانين الوضعية على نحو ما ذكرنا آنفًا فى أكثر بلاد العالم الإسـلامى إلا من رحم ربك- أن أصـبح الفكـر الغـربى بكل مـعطيـاته وتوجيهاته يدير دَفَّة الحـياة فى كل المؤسسات الحديثة التعليمـية والإعلامية والاقـتصـادية، وفى هذا المناخ العـام حُوصِـرت الجامـعات الإسـلاميـة وزُوحـمت المساجـد بالحـانات والمؤسسـات الربوية وبدور الفن والمسـرح والسيـنما التى لا تتـقيد بـقواعد الشـرع ولا تلتزم بـآداب الإسلام، وبدأ أنموذج الازدواجية فى الشخصية والمؤسسات يجتاح الحياة، وتخلخل ولاء المسلم لله ولرسوله وللمـؤمنين، ورأينا الحياة يطفو على سطحـها اتجاهات بعيدة عن منهج الإسلام وشرعته.

وزاد من حـدة المأساة أن خطط لـعزل التـعليم عن الإسـلام ومنهجـه ونظرته فى الحيـاة وآدابه وشريعتـه بإيجاد تعليم مدنى يتلقى فـيه الطالب

مجموعة من المعارف والفنون والمهارات تربط الطالب بحضارة الغرب ونهضته أكثر من ربطه بالإسلام وحضارته ورسالته فى الحياة، وأصبحت قنوات هذا التعليم هى التى تمد المجتمع بكل الكوادر المدربة فى المجالات الإدارية والفنية والصناعية والزراعية والطبية والقضائية والعسكرية وصارت ساحته ميدانًا رحبًا لاجتذاب أصحاب القدرات المتفوقة من أبناء المجتمع، وترك التعليم الدينى فى جانب قصى من المجتمع لا يشغل من ساحته إلا الجانب التقليدى والرتيب، ولا يسمح له أن يدخل فى قضاياه الرئيسية ولا يفتى فى أموره الحيوية. . ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد نتج عن هذا التوجه العلمانى أن ازدهرت كليات الحقوق وصار المتخرجون فيها هم سدنة القوانين وأهل التشريع والرأى، واستبحرت أبحاثهم وازدهرت جمعيات القوانين الوضعية بينهم، واتصلت حبالهم بمراكز التوجيه والرأى فى أمهات البلاد التى أخذت عنها القوانين الوضعية مثل فرنسا وانجلترا وصاروا غدائين رواحين على هذه البلاد يستقون من نبعها ويُحاكون مؤسساتها ويحتكمون إلى مجموعات القوانين التى تصدر من حين لآخر عندها.

وفى الجانب الآخر وهو كليات الشريعة، استمرت هذه الكليات فى دراسة الفقه الإسلامى بجميع فروعه العلمية والاستنباطية، ولكنها حرمت من العقليات المقتدرة المتفوقة بسبب تخطيط التعليم على نحو ما بيّنا آنفًا، كما حجبت عن معالجة الواقع ونزول خريجيها إلى الحياة التشريعية والإدلاء بدلوهم فى مشكلات المجتمع وقضاياه، وأصبح جُلُّ هم المتخرجين فى أغلب كليات الشريعة فى الجامعات الإسلامية أن يجدوا عملاً تدريسيًا يكفيهم مؤونة العيش، والقلة القليلة منهم تتوجه إلى قضاء

الأحوال الشخصية إن كان قد أبقى عليه.

وقد مكن هذا الواقع المريض وهذه العزلة التى فرضت على الشريعة دعاة العلمانية والمادية أن يثيروا الشبهات حول الشريعة وإمكانية تطبيقها وعودتها إلى علاج مشكلات الأمة كما أرادها رب العالمين، وقد وصل بهم التبجح إلى أن ينعتوها بأوصاف هى على النقيض منها، ويشيعوا أموراً هى أبعد ما تكون عنها.. وماذا تنتظر من جاهل أو جاحد أو صاحب هوى إلا الغواية والعمى والتخبط، وصدق الله العظيم: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ [الحج: ٨].

كيف نواجه هذا الواقع المر؟

لم تتوقف الأمة الإسلامية فى أى مرحلة من مراحل تاريخها الحديث عن الذّود عن حماها والتصدى لغزاتها والمريدين السوء والتشويه لإسلامها، وظلت شعلة دعاة الحق وأولى الإصلاح مصداقًا لقول المصطفى ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك»(١)، ومن فضل الله عز وجل ورحمته بالأمة أن جهود

(١) أخرجه أحمد فى المسند ج٥ ص٢٦٩ والبخارى -بألفاظ أخرى- فى كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبى ﷺ آيه، ومسلم فى كتاب الإمارة - باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق.

الدعاة لم تذهب سدى، وأثر الجامعــات الإسلامية ظل يمد شعلة الإسلام بالرجــال إلى أن بدأت اليــقظة الإســلامــية تتــجــاوب أصــداؤها وتتناغم أفكارها، ويشــتد عــودها، ويصــبح مطلب استــعــادة الهوية الإســلاميــة إجماعًــا، ومطلب تطبيق الشريعة يغدو هــديرًا لا يقف أمامه شيء، لكن هذا يتم فقط على الــصعيد الشــعبى ويلقى تجــاوبًا من السواد الأعظم من الأمة، بينما عــلى مستوى المؤسســات وأجهزة الفكر وقيــادات المجتمع لا زالت هناك مقاومة منظمة تحاول خلق العراقيل، والتماس الأعذار، وحبك المؤامرات، وتعطيل مســيرة الإسلام بين أهله وحرمــان الأمة من ثماره.. فمــا هو يا ترى طريق المواجهة وما هى الوســائل المكافئة للتــصدى لتلك المقاومة؟

بادئ ذى بدء قبل أن ندخل فى الإجابــة لابد أن ندرك أننا نواجه تيارًا حــضاريًا يملك كل قــوى التأثيــر وكل قــوى الدعم وكل أفانين التــوجيــه ووسائل الإغراء والبطش، وأن هذا التــيار تسنده القوى الخارجيــة المتربصة بالإسلام، والتى ترصد مجتمعاته وتحولاته والتى تحرص أشد الحرص على تعويق مســيرته، وعلى إبقائه فى منطقة النفوذ والخــضوع، ولذا فلابد أن تكون المواجهة بصيرة وواعية، بأن تعــمل الجامعات الإسلامية على إعداد أبنائها لتكون عندهم القدرة المتكافئة مع الدور المطلوب.

ومن هنا يجب على الجــامعــات الإسلاميــة أن تتبنى خطــطًا تعليمــية واجتماعــية تستعيد بها أرضــها المفقودة فى المجتمع وتدعم مــسيرة تطبيق

الشريعة، وتوفى بالميثاق والعهد الذى أخذه الله على طلبة العلم بالبيان المبين والبلاغ الصادق والجهاد والمجاهدة.

نقلات حضارية ثلاث

أعـاد الإسلام صـياغـة العـقل البشـرى بما يجعـله قادرًا على الفـعل الحضارى من خلال نقلات أساسية: نقلة تصورية اعتقادية، ونقلة معرفية، وثالثة منهجية[1].

أما النقلة الاعتقادية فهى من التعدد إلى توحيد الله وحده، ومن عبادة العبـاد إلى عبادة الله عز وجل، ومن عـشق الحجارة والأصنام إلى محـبة الحق وكسـر الحاجـز المادى وجعله ينظر ويتطـلع إلى عالم الغـيب. وقد تحدث القـرآن عن هذه النقلة أنها خروج بالناس مـن الظلمات إلى النور، ثم جرده من الأغـلال والقيود وأوزار الجاهليـة وضلالتها وعـاداتها، وفى ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقـام هذا التصور على النظر الصحـيح والطريق المستقـيم، وانضبطت حركة الإنسان بالتوحيد واليسر والعدل والقيم الخالدة التصورية المنبثقة عن ذلك: الربانيـة، الشـمـولية، الـتوازن والثبـات، الحـركة والإيجـابيـة والواقعـية. . . وهذا النسق المحكم يمثل تطـابقًا باهرًا مع معطـيات الفطرة

---

(١) انظر مؤشرات حول الحضارة الإسلامية للدكتور عماد الدين خليل.

البشرية.

أما النقلة المعرفية فهى عمل فى صميم العقل من أجل إعادة تشكيله بالصيغة التى تمكنه من التعامل مع الكون والوجود، فليس عبثًا أن تكون كلمة ﴿**اقْرأْ**﴾ [العلق: ١] هى الكلمة الأولى من كتاب الله وتتكرر مرتين فى آيات ثلاث وليس عبثًا أن ترد كلم «**علم**» ثلاث مرات، وأن يشار إلى القلم الأداة التى يتعلم بها الإنسان.

وعبر المدى الزمنى لتنزل القرآن ينهمر السيل، ويتعالى النداء المرة تلو المرة: اقرأ.. تفكر.. اعقل.. تدبر.. تفقه.. انظر.. تبصر.. إلخ، وهذا جعل العقل يتشوق إلى المعرفة، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل.

أما النقلة المنهجية فتشمل ثلاثة أمور:

أ- **السببية:** وهى رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود تربط -وهى تتأمل وتبحث وتعاين وتتفكر- بين الأسباب والمسببات، فهذا الكون الذى تراه والذى سخره الله عز وجل لبنى البشر هو تعبير عن إبداع الخالق تشده قوانين واحدة وأسباب واحدة وتصدر عن إرادة واحدة، ولن يتحقق فهمه أبدًا ما لم ينظر إليه إلا من خلال رؤية عقائدية تعرف كيف تجمع وتقارن وتختزل وترتب وصولاً إلى الحقائق التى يبتغيها.

إن الكشف عن السببية والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشرى، وإضافة قيمة تمكنه من إعادة التشكيل فى صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع فوق ما تمنحه من اليقين بقدرة الله عز وجل وعظمته.

ب- القانونية التاريخية: إن التاريخ البشرى لا يتحرك بفوضى على غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء، فالقانون يحكم التاريخ ويشتمل على الظواهر الاجتماعية، ولا يكتسب التاريخ أهميته الإيجابية إلا بأن يُتخذ ميدانًا للدراسة والاختبار تستخلص منه القيم والقوانين التى لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها كما فعل ابن خلدون فى مقدمته عن العمران البشرى ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

جـ- منهج البحث الحسى التجريبى: يمكن القول بأنه لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفى القيم الذى أحرزه المسلم خصوصًا، والعقل البشرى عمومًا، والذى تمثل بمنهج البحث الحسى التجريبى الذى كشف النقاب عنه ونظمه وأكده ودعا إليه كتاب الله تعالى.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق «النظر الحسى» إلى ما حولهم ابتداء من وقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى الحواس مسئوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب، وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله.. إلى خلقه.. إلى طعامه وشرابه.. إلى الكون من حوله.. إلى التاريخ وحركة الإنسان فى الأرض.. إلى خلائق الله وآياته المنبثة فى كل مكان.. إلى النواميس الاجتماعية.. إلى الطبيعة والعالم.. ودعاه أن يحرك سمعه باتجاه

الأصوات لكى يعرف ويميز.

وانتقل القرآن الكريم خطوة أخرى فدعا الناس إلى تحريك «بصائرهم» لتتحمل مسئوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة.

وأكد القرآن على الأسلوب الذى يعتمد البرهان والحجة والجدال الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والموازنة والتمحيص، ولا يسعنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هذا المجال أو حتى الإشارة إليها، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة «علم» بتصريفاتها المختلفة وردت فى عدد من الآيات جاوز الـ ٧٥٠ آية.

وهكذا فإن النقلة أو التحول الحضارى الكبير الذى نفذه المسلمون وتحققوا به عبر القرون إنما جاء ثمرة العقلية التى صاغها الإسلام ودفعها للنقلة الخطيرة حتى تؤدى دورها الشامل فى تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية، ولم تكن هذه النقلة الحضارية بحال أقل خطورة من النقلات الثلاث التى مهدت لها وشقت أمامها الطريق.

حضارة الغرب

أخذ الغرب عن طريق الاحتكاك بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية وممن تعلموا فى جامعات قرطبة وجنوب إيطاليا؛ ما قدمه المسلمون فى مجال العلم التجريبى، ثم حدثت الأزمة الهائلة والانفصام النكد بين رجال العلم وآباء الكنيسة من جراء سيطرة الفكر الإغريقى على عقلية آباء الكنيسة فى نظرتهم للكون والحياة، وأن الأرض هى مركز الكون، إلى غير ذلك من الآراء، وانتهى الأمر بإقامة محاكم للتفتيش التى تحكم على العلماء بالحرق والسجن وغير ذلك، فكان أن حدث رد الفعل الذى قامت على إثره الثورة الفرنسية التى كان شعارها «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

وانطلقت حضارة الغرب تبحث عن نظريات تؤسس عليها نظرتها للحياة والإنسان والكون، فتوجهت أولاً إلى الإيمان بالعقل الإنسانى الواحد بدل الإيمان بالله الواحد، وقد وضح ذلك فيما وضعه أوغست كونت فى كتابه الشهير فى الفلسفة الوضعية، وكذلك ما وضعه هيجل فى نظريته فى تعليل التاريخ وأن المبدأ الأساسى الذى يحرك الوجود هو الروح أو العقل المطلق للكيان، ثم نظرية دارون فى نشوء الأحياء وارتقائها، ثم جاء علماء الاجتماع كهربرت وسبنسر وأمثاله فنقلوها من عالم الحياة العضوية إلى عالم الحياة الإنسانية، ثم جاء ماركس ووضع نظريته الجدلية على أساس أن المحرك لحياة الإنسان هو العالم الاقتصادى،

وفرويد من أن المحرك هو الغريزة الجنسية، وهكذا اجتمع للحضارة الغربية كل النظريات التى تربط نشاط الإنسان بالجانب المادى فى الحياة وتفرغه من الجانب الروحى، ثم جاء البراغماتيــون فكرسوا مذهب المنفعة وقالوا: إن علم الأخلاق فيمـا يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبـيعية فى أنه لا يمكن استنباطه كله مرة واحدة من مبادئ ذهنية، بل لابد أن يخضع للزمن وأن يكون مستعداً لأن يغير نتائجه من آن لآخر، والآراء الذائعة حق، وأن القانون المعيارى الحق هو ما يعتقده الرأى العام.

وهناك بيان صدر فى أمريكا سنة ١٩٣٣ م ووقـعه جون ديوى وآخرون وقد جاء فيه:

١- الكون موجود بذاته وليس مخلوقًا. ٢- الإنســان جزء من الطبيعة وهو نتيـجة عمليات مـستمرة فـيها. ٣- لا ثنائية بين العـقل والبدن وإن النظرة العضوية إلى الحـياة نظرة صادقة. ٤- ثقافة الإنســان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجى الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبـيئة الطبيعية والوراثة الاجتـماعية. ٥- لقد ولى الزمـن الذى كان الناس يعتقـدون فيه بالدين وبالله (تعـالى الله عن ذلك علواً كبيـرًا). ٦- لا توجد انفـعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة.

وكانت الحروب الصليـبية ما بين القرن الحادى عشـر إلى القرن الثالث عشر وما تركـته من آثار فى النفسية الأوروبية بالنسـبة للإسلام والمسلمين وأثر الإعجـاب بالأخلاق والأفكار التى يقدمـها الإسلام بالنسـبة لتفسـير الكون والحيــاة والإنسان ومطابقة ذلك للفطرة الإنسانيـة، وتأثير ذلك فى حـركة الإصـلاح الدينى التى جـاءت عـقب ذلك وقام بهـا مـارتن لوثر

وكليـفن، ولكن بدل أن يكون ذلك عـامل جذب ومـحـاورة ارتد ليكون عامل دراسة وبحث لتشويه الإسلام عند الأوروبيين، فنشأ تبعًا لذلك علم الاستـشراق وتعلم العـربية للبحث عن الأمـور التى تشوه الإسـلام وتنفر الأوروبيين منه، وصـدرت الكتابات الكثـيرة حـول ذلك وهذا ما أكـدته الدكتورة «أنا مارى شـمل» فى مقدمتها لكتاب «الإسلام كـبديل» للدكتور مراد هوفمان، ومـا عالجه وبيّنه الأستاذ طيباوى فى بحثـه عن المستشرقين الناطقين بالإنجليزية.

ثم كان احـتكاك الغرب بالدولة العثـمانية فى البلقـان وأوروبا وما دار بينهما من معارك على أبواب فينا، ثم جاء ارتباط النهضة الأوروبية بحركة الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى ابتداءًا من القرن السابع عشر الميلادي. وقد استطاع الاستعمار الغربى أن ينفذ خطته بخبث ودهاء وأن يُخضع كل بلاد العـالم الإسلامى لنفـوذه وسـيطرته من جاكـرتا فى إندونيـسيـا إلى الأوراس فى الجزائر، وما أن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى استطاع أن يقضى على الخلافة الإسلامية ويقسم تركتها تبعًا لاتفاقية سايكس بيكو.

ومن هنا كان تعامل الحـضارة الغربية بإرثها الـتاريخى وإرثها الفكرى، ونظرتها الاسـتعمـارية نظرة الاستعـلاء والكبر، فهـى نظرة لا تقوم على الندية ولا الأخـذ والعطاء، وإنما تقوم على الأحـادية وأنها الحـضارة التى انتـهت إليـهـا الحضـارات. وزاد من تركـيـز هذا الموقف انهـيـار النظام الاشتراكى، فـانفردت الحضارة الغـربية بقيادة العالم، وظـهرت الكتابات التى تبرر هذا الانفراد من مثل كتابة فرانسـيس فوكوياما وكلامه عن نهاية التـاريخ وأن العالم بأسـره قد وصل إلى مـا يشبـه الإجمـاع بخصـوص

الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم بعد أن ألحقت الهزيمة بالأيدولوجيات المنافسة. ويرى فوكوياما أن كلاً من هيجل وماركس كانا يريان أن التاريخ سيصل إلى نهايته حينما تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع الذى يشبع حاجة البشر الأساسية والرئيسية، فهو عند هيجل الليبرالية وعند ماركس المجتمع الشيوعى.

ومن مثل كتابة هنتنتن فى بحثه عن صدام الحضارات، وفيه يرى أن الصراع القادم سيكون صراعًا بين الحضارات ستصفى فيه الحضارة الغربية الحضارات التى لازال عندها إحساس بهويتها وذاتيتها، وأن أهم عامل فى حضارات اليوم هو الدين. ويضرب الأمثلة على بدء الصراع الدامى فى العالم بأن المحرك لها هو الدين، ولهذا يرى العقلاء من الغرب من أمثال روجيه جارودى أن هيمنة الغرب هى أخطر حدث فى تاريخ الكون لم ينتج عنه سوى الخوف من الموت، وخشية الإنسان أخاه، والذعر من المستقبل، يقول جارودى: «منذ القرن السادس عشر إلى نهاية القرن العشرين تحكمت فى حضارتنا الغربية فرضيات ثلاث: أسبقية الفعل والعمل، وأسبقية العقل، وأسبقية اللامتناهى الردئ واللامتناهى الكمى»..

ثم يقول: إن هذه الحضارة مجهزة بدواعى الانتحار، وذلك لانعدام الغاية كما يشهد بذلك اللجوء إلى المخدرات، وانتحار المراهقين التى هى أكثر حدوثًا فى البلاد الأوفر ثراء، وازدياد معدل الجريمة، وانتشار مرض الإيدز، وتلوث البيئة ونفاد الموارد الطبيعية، وهى نتيجة لتصور لا يرى فى الطبيعة إلا خزانًا ومزبلة. إن مجتمعاتنا التى تدعى أنها متقدمة تشغل

باسم فرضية اللامتناهى الكمى بمقتضى مبدأ السفسطائيين: خلق الحاجات والشهوات. إن هذه النهضة لم تكن مجرد حـركة ثقافية، بل كانت مولدًا مزدوجًا للرأسمالية والاسـتعمار، والتى هى أبعد من أن تكون أوج النزعة الإنسانية، لقـد أتلفت هذه الحضارة حضارات أعلى شأنًا منهـا فى علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع والأمور الإلهية.

رؤية قرآنية للحضارات

من النقلات البعيدة التى أثرت فى العقل الإسلامى ووضعته علي سنن الحق وناموس الهدى: القانونية التاريخية التى بينت أن تاريخ البشرية ملحمة متصلة تضبط سيرها سنن ونواميس لا تتخلف ولا تتبدل، تنتفى عنه العبثية، ولا مجال فيها للصدفة، فالخلق كله كونه وبَشره محكوم منضبط لا لهو فيه ولا عبث، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:١٦، ١٧].

ولذا كان من إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أنباء الأمم الغابرة والحضارات البائدة إخبارَ الحاضر المشاهد المعاين، يقول الله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [هود: ٤٩]، ويقول سبحانه: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا**﴾ [طه: ٩٩]، ويقول عز من قائل: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٠].

والهدف العظيم من هذا القصص هو مثول العبرة أمام أصحاب العقول

الحية، و«العبـرة والاعتبار بما مضى أى الاتعاظ والتـذكر.. وتكون العبرة والاعتـبار بمعنى الاعتداد بالـشئ فى ترتيب الحكم»، وصدق الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

والاعتـبار الذى بيّنـه القرآن ووضحـه أن الله عز وجل ابتلـى الإنسان بالاستخلاف فى هذه الأرض ليعمرها بإصلاح العمل وإحسانه، يقول الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢]، ويقول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٧]، وبالتـالى فإن كـلا من العمل الصـالح والعمل السـيئ له نتائجه وثمراته إن خيرًا فـخير وإن شرًا فشر، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومن هنا فـإن الذنوب والسيئـات ليست مـحـايدة، فهى تعـمل فى الحضـارات والمجتمعـات عمل الأمراض فى الأجسام من الجهـد والسقم والضعف والإفناء، بل هى أخطر فـتكًا وأشد أثرًا لأنها تقـتل فى الإنسان أشرف مـا فيه، وهى المعنويات والفـضائل والمكرمات التى فـضل الله بها الإنسان وميزه عن الحيوان الأعجم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

والقرآن الكريم يعرض سير الأنبياء والمرسلين وكونهم حملة رسالة الحق إلى أقوامهم وأممهم يبينون لهم سنن الحق والهدى، ويأخذون بأيديهم إلى أخلاق الفطرة السوية، ويعملون بينهم بالشريعة المستقيمة، يقول تعالى: **﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾** [الحديد: ٢٥].

فأى أمة أو حضارة أعرضت عن سنن الحق فى النفس والحياة والعلاقات والأشياء، وأعرضت على هدى الله فكفرت بأنعمه وأشركت به سبحانه وتعالى أولو الأمر فيها فتكبروا وتجبروا واتبعوا أهواءهم فتنكبوا الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة. فظلموا أنفسهم وتجبروا على قومهم وشاعت فيهم منكرات الأخلاق والأفعال، إذا فعلوا ذلك نزل بهم عقاب الله لا محالة، يقول جل وعلا: **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾** [الإسراء: ١٦]، ويقول: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾** [القصص: ٥٨].

والقرآن الكريم لا يبخس الحضارات حقها فيما أنجزت من عمران وتشييد وبناء، ولكنه يبين أن الجانب القيمى والأخلاقى هو الذى يحفظ إنسان الحضارات ويجعل عنده المناعة والرشد الذى يقيه التدهور والفساد.

ويعرض القرآن الكريم عرضاً باهراً أخاذاً ومؤثراً كيف أن الذى دمر حضارة الإنسان على مر العصور والدهور هو الفساد فى المعتقد والأخلاق

والقيم والشرائع التى تحكم المجتمعات، وأن الفساد إذا دب فى ناحية من نواحى أى مجتمع سرى فى الجوانب الأخرى، فحياة المجتمعات والأفراد وحدة لا تتجزأ إذا أصاب العطب جزءاً مضى إلى الأجزاء الأخرى، فكما قيل: الفساد ليس محايداً ولا عقيماً.

ولهذا عرض القرآن العظيم قصة قوم لوط وكفرهم وفسادهم الخلقى، وقصة قوم عاد وكفرهم واغترارهم بقوتهم، وقصة قوم شعيب وكفرهم وتطفيفهم الكيل، وقصة أهل سبأ وكفرهم وجحودهم وإعراضهم، وقصة فرعون وتألهه واستبداده وظلمه، والقرآن له فنه الفريد فى العرض وطريقته المتميزة، فلا يسرد القصة سرداً وإنما يوردها هنا وهناك بأسلوبه المتفرد حسب سياق العبرة، وجرسه المؤثر، وتصريفه القول.

وعلى ذلك فالميزان الذى يزن به الإسلام الحضارات هو مدى قربها أو بعدها من عقيدة التوحيد، ومن قوانين الحق والفطرة، والتزامها بقيم العدل والقسط، وحضها على محاسن الأخلاق وجميل العادات والآداب، وبعدها عن جرائم الظلم والتسلط والكبر، والإسلام يرى أن الأسرة البشرية لحمة واحدة وآصرة مشتركة، وأن التعدد والتنوع بين الأمم والقبائل إنما غايته التعارف والتعاون لا التنابذ والتخاصم، فيقول اللّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١]، ويقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ**

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويأمر بالـتعاون والتآزر: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[المائدة: ٢]. . إلى غير ذلك من الآيات التى تضع البـشرية كلـها فى إطار التـفاهم والدعـوة إلى المثل العليا والقيم الكريمة التى تجمع بين بنى الإنسان على كلمة سواء، ويخص أهل الكتاب بالرعاية والعناية لما عندهم من بقية خير وأثر من الكتب التى تنزلت فيهم.

الحضارات البشرية واحدة أم متعددة؟

الحضارة ضد البداوة، وهى مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى ومظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى. وكلمة حضارة فى اللغات الغربية Culture مأخوذة عن اللاتينية من فعل Colere بمعنى حرث ونمى، وقد كانت فى الأصل مقصورة على تنمية الأرض ومحصولاتها. وفى أوائل العصور الحديثة بدأت تنتقل بمدلولاتها إلى الجانبين العقلى والمادى، ثم غدت فى القرن الثامن عشر تدل على تنمية العقل والذوق واتسعت لتشمل المكاسب العقلية والأدبية والذوقية لتقابل عندنا لفظ الثقافة. ثم بدأ علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يعنون بدراسة المجتمعات بدءاً من القرن التاسع عشر إلى أن أصبحت الكلمة تعنى مجموع عناصر الحياة وأشكالها وفاعليتها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات.

ولا شك أن هذا التطور للكلمة وما أخذته من مراحل فى الفكر الغربى تدلنا على سبق العلاّمة ابن خلدون فى تعريفه للعلم الذى يبحث طبيعة العمران والذى يعتبره حقيقة التاريخ، وأن هذا العمران: هو نمط الحياة بوجه عام وبمعنى وصفى غير تقييمى، فيشمل أحوال المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء ولايقتصر على الثانية منها فحسب.

وانطلاقاً من هذا المعنى يحدد ابن خلدون بحثه فى مقدمته فى ستة فصول: الأول فى العمران البشرى عموماً وأصنافه وقسط من الأرض،

والثانى فى العمران وذكر القبائل والأمم الوحشية، والثالث فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية، والرابع فى العمران الحضرى البلدان والأمصار، والخامس فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، والسادس فى العلوم واكتسابها وتعلمها، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على الفكر الشمولى الذى منحه له الدين القيم دين الإسلام.

على أن الحضارات البشرية التى زخر بها تاريخ الإنسان كالحضارة المصرية والبابلية واليونانية والعربية والمكسيكية والصينية وتركت آثارها فى الفكر والفنون والآداب والشواهد والمتاحف والآثار؛ ليست واحدة فى ذاتها، وذلك لتميز كل منها فى اتجاهاتها وانجازاتها واختلافها فى الزمان والمكان، ولهذا رجح مؤرخو الحضارات وعلى رأسهم أوزوالد شبينغلر أن كلاً منها مستقلة عن الأخرى، فيقول: إن الرأى القائل بحضارة إنسانية واحدة تسير فى خط ينقسم إلى عهود قديمة ومتوسطة وحديثة، رأى صادر من العقلية الأوروبية الغربية المحدودة ضمن أفقها المحدود، والمعجبة بإنجازاتها، والتى تحصر الحضارة بذاتها وتنصرف عن الحضارات الأخرى، وتنظر إلى تطورها وكأنه تطور الإنسانية بكاملها وإلى عهودها الحديثة وكأنها أواخر مراحل التقدم أو خاتمتها، فهو لا يقر بمركز خاص للحضارة الأوروبية الغربية أو لأية حضارة أخرى، فكل حضارة مستقلة عن سواها، ولكل منها حياتها الخاصة وفلكها الذى تدور فيه، ومميزاتها الذاتية المستمرة من جوهر كيانها، وتبعه فى تقرير ذلك الرأى العديد من مؤرخى الحضارات المشهورين وعلى رأسهم أرنولد توينبى.

ثم يقول شبينغلر: ومن هنا كانت خصائص كل حضارة وانفصالها

وتفردها عن سواها، فليس ثمة نظام سياسى واحد، ولا اقتصاد واحد أو اجتماع واحد، ولا عقـائد أو سنن أو أخلاق إنسانية واحدة، ولا فنون أو آداب واحدة، حتى العلوم تكون تابعة للحضارات ومـختلفة باختلافاتها، فلا يمكن أن نقـول بنظام عددى واحد، أو علم رياضى واحـد، وإنما نجد نظاماً عددياً، وعلـماً رياضيا مطابقاً لكل حـضارة من الحضارات ومنبـثقاً ككل نتـاج من نتـاجاتـها عن رمـزها الأولى الأصـيل، كل شىء نسـبى والحقيقة كذلك نسبية.

والحضارة كائن عضوى، وككل كائن عضوى لها أدوارها المتتابعة، إنها كالإنسان تولد فتـمر بأدوار الطفولة والشباب والكهولة والشيـخوخة، إنها تدور فى أربعة فصول: لها ربيعها المتسم بالفاعلية الروحية، وصيفها الذى تتضح فيـه، وخريفها الذى يسوده التحليل العـقلى، وشتاؤها الذى تكون فيه قد استنفدت جميع إمكاناتهـا الداخلية فتنصرف إلى الاهتمامات المالية وإلى الفتوح الخارجية، ويكون هذا مقدمة لانحلالها وانهيارها.

وقد جاء الإسلام خاتماً لرسالات الله جميـعاً، مبيناً استخلاف الله عز وجل لبنى آدم فى الأرض ليعبدوه وليقوموا بتعميرها، وصحح كل الرؤى الخاطئة التى سبقته، فـأعطى البشرية رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان، وبيّن أن البشـرية مضت فى خطين وفى طريقين: أحدهمـا طريق النبوات والرسـالات، والآخر طريق الوثنيـات والحـضارات التى بعـدت عن نور الوحى وهداية الله وتنكبت طريق الفطرة السليمـة وتخبطت فى الظلمات وحاق بهـا عقاب الله فى الـدنيا وسوء المصـير فى الآخرة، وقـد عرض القرآن الكريم لهذا النوع ببيان أخاذ وعرض مؤثر.

الخطاب القرآنى والحوار

إن أخطر ما يواجـه مجتـمعات الأمـة الإسلاميـة اليوم هو الاستـبداد والقهـر وغلق قنوات الحوار وتزييف الشـورى والانحطاط الخلقى. . فإذا أحس أهل السلطة أن الأرض ضاقت عليهم وأن المشكلات تواكبت عليهم ونادوا بالحوار فهى عـلامة صحة وبادرة يقظة على المدعـوين أن ينتهزوها ويبادروا إليها، ذلك أن الاقتتال الداخلى مدمـر للمجتمع ويهيىء الفرصة للعدو الخارجى لمزيد من السيطرة والتوجيه. . .

ولكى يكون الحوار صحيحاً لابد أن يتـوجه إلى علماء الأمة ومفكريها وأهل الرأى وجمـاعات الإصلاح والرشـد كى يتمكنوا من بلورة أسـباب الخلل وعلل الفساد وجمع الأمة على كلمـة سواء وعلى مشروع إصلاحى ينقذها من كبوتها ويأخذ بيدها من أزمتها.

ولقد جاء القـرآن الكريم رسالة موجهة إلى العـقل البشرى، وإلى كل وسائـل الحس فى النفس البشـرية، فلا غـرو أن حفل بألوان عـديدة من الخطاب،حـسب النوع الذى يخاطـبه ومـستـوى من يخاطبـهم؛ ذلك أن درجات الوعى فى الإنسـان تختلف من إنسان لآخر ومن قـوم لآخرين، فما يصلح العامى لا يصلح لغيره من المثـقفين، ومايصلح للمثقف العادى لايصلح للمتفلسف المجادل. . لذلك رأينا القرآن الكريم يطلب من الداعية المسلم رعـاية ذلك فقـال الله فى كتـابه: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥]، فمرحلة الدعوة العامة خطاب تذكير وموعظة حسنة تضبطها الحكمة، ثم بعد ذلك جدال بالتى هى أحسن بالحجة والبرهان وتفنيد الدعوى وطلب الدليل: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤] فلكل مقام مقال...

ومن هنا كان تصريف القرآن للقول وتنوع أدلته وإيراد القصص وضرب الأمثال، وذلك ليحاصر فى الإنسان جدله ويلزمه الحجة، وصدق الله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤]، ولهذا كانت قضية الحوار والجدل من القضايا التى أوردها القرآن فى أكثر من موضع، فحوار الملائكة مع رب العزة فى شأن استخلاف آدم، وطلب إبليس من الله عز وجل أن ينُظره إلى يوم يبعثون، ثم حوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم حتى يلزموهم الحجة ويُعذروا إلى الله، فهذا سيدنا نوح عليه السلام يستفرغ جهده فى كل وسائل الدعوة؛ من دعوة قومه بالليل والنهار والجهر والإسرار والترغيب والترهيب ودحض شبهاتهم ومفترياتهم حتى يقول له قومه: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] وينتهى الأمر فيقول الله له: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٢] وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يحاجج النمرود ويجادله إلى أن يهزمه ويُعجزه، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقد حاج قومه فى عبادة الكواكب وعبادة القمر والشمس إلى أن أبطل زعمهم وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وقال الله عنه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وحاور موسى عليه السلام فرعون الطاغية وألزمه الحجة، فما كان من فرعون إلاّ أن هرب واستغاث بالسحرة[1].

وأورد القرآن الكريم قصة الرجلين اللذين كان لأحدهما جنتين من أعناب وفيهما نخل وزرع ويجرى بينهما نهر، وكيف طغى صاحب الجنتين وظلم نفسه وظن أنهما لن تبيدا أبداً وأنه مخلد فيهما، فما كان من صاحبه المؤمن إلاّ أن قال له على نحو ما سجل القرآن: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧، ٣٨] إلى آخر القصة.

كما أورد القرآن قصة المرأة التى جادلت رسول الله ﷺ فى أمر زوجها الذى حلف عليها وقال لها أنت على كظهر أمى، وقالت للرسول الكريم: إن لى منه صبية إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىّ

(١) طه: ٤٧-٧٠، الشعراء: ١٧-٤٨.

جاعوا.[(1)] ونزل القرآن يسجل ذلك فقال: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ [المجادلة: ١].

إذاً فالقرآن فى قضية الإيمان بالله عز وجل ورسالاته يفتح الباب أمام كل وسائل الإقناع وكل الطرق التى تؤدى إلى الفهم الصحيح، وما إيراده القصص وضربه الأمثال وإيراده الحجج الكونية إلا تدريب للدعاة والمؤمنين على ذلك، يقول سبحانه: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ثم هو بعد ذلك يلزم المؤمنين أن يأتمروا بينهم بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، وهذا مجال آخر من مجالات الحوار؛ أن يكون كل مؤمن حارساً لمجتمعه ناصحاً لأهله وقومه وولاة أمره، حتى إن الرسول الكريم ﷺ يعاهد أصحابه على النصح لكل مسلم ويقول: «ثلاث لا يُغل[(2)] عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة

---

(١) قال ابن سعد: «خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف، تزوجها أوس بن الصامت بن قيس بن أصرم، فهو أخو عبادة بن الصامت، وهى المجادلة، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ» (الطبقات الكبرى ج٨ص٣٧٨ طبعة بيروت). وقال القشيرى: «وفى الخبر أنها قالت: يارسول الله! إن أوساً تزوجنى شابة غنية ذات أهل ومال كثير، فلما كبر عنده سنى، وذهب مالى، وتفرق أهلى، جعلنى عليه كظهر أمه، وقد ندم وندمت، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، يعنى ففرج الله عنها» كذا فى (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) للبقاعى ج١٩ص٣٤١ طبعة دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة.

(٢) لا يغل: بالضم من الإغلال وهو الخيانة، وبالفتح من الغل وهو الحقد والشحناء، أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق، والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الشر.

المسلمين، ولزوم جماعتـهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[1] ، ثم تأتى الشورى لتكون جزءاً من النظام الحياتى للأمة فى داخل الأسرة والمؤسسات المختلفة، ثم جزءاً من النظام السياسى للأمة وواجباً على الحاكم والإمام، وانظر كيف جاءت مع الإيمان وكيف توسطت بين إقامة الصلاة والإنفاق، يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى:٣٨]. وكيف أُمر بـها المعصوم ﷺ من فوق سبع سموات: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩].

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم، باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع. وابن ماجه فـى المقدمة، باب من بلغ علما. وأحـمد ١٨٣/٥ . والدارمى فى باب الاقتداء بالعلماء ج ١ص٧٥.

نحو حوار نافع

مما لا شك فيه أن الحوار يتنوع حسب المشكلات والقضايا التى تواجه الحضارات القائمة والأطروحات والأفكار التى سببها الإرث التاريخى والممارسات التى اعتادتها الحضارة القائمة. وقد عرض الأستاذان روجيه جارودى المفكر الفرنسى ومحمد مزالى فى كتاب «حوار الحضارات» أن العقبة الكؤدد أمام مشروع الأمل فى الحوار هى: عقدة الاستعلاء والغرور التى تحكم الغرب وإرادة الهيمنة والاستغلال، وأنه لابد للغرب أن يتحرر من هذه العقدة ويحترم خصوصية كل ثقافة ويؤمن بأن شرف المساهمة فى إثراء الحضارة البشرية حق وواجب، وأنه لابد من محو آثار الالتباس التاريخى الكبير الذى أفسد علاقات الشرق والغرب منذ قرون ومهد للحروب الصليبية وبرر الاستعمار والاعتداء على حرمات الشعوب، وأنه لابد من محاولة اكتشاف الذات ووجود رؤية حضارية أصيلة تسمح بالتعدد وتؤمن بمقومات الكيان الفردى والجماعى الروحية والفلسفية والأخلاقية، وتتيح الابتكار والخلق والمعاناة للظفر بالحلول الجذرية للمشكلات المستعصية التى يطرحها علينا محيطنا الثقافى والاجتماعى، وبالجملة لابد لأبناء الحضارة الغربية من التواضع الفكرى والتخلى عن الاعتقاد بأنهم كل شىء وأنهم مصدر المعرفة والقوة والسعادة وأن من سواهم من البشر مضطرون إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم واستهلاك بضاعتهم، نسألهم باسم الموضوعية العلمية أن يعيدوا قراءة التاريخ

وينفتحوا على الحضارات والثقافات الأخرى.

لقد استقبل النبى ﷺ وفد نصارى نجران فى مسجده الشريف وحاورهم واستمع إليهم(١)، كما قامت حوارات فى العصر الحديث بدأت من البابا بولس السادس فى ٦آب/أغسطس١٩٦٤م، وقد أنشئت أمانة لشئون المسلمين فى مقر مجمع الكنائس العالمية فى جنيف.. والوثائق الأولى للحوار تبين وتوضح أنه كان وسيلة مخفية للتبشير، وقد أوضح الدكتور هالكروتز- وهو عالم لاهوتى نرويجى - فى دراسته المفصلة أن الحوار هو التطوير الثانى لحركة التبشير المسيحى.

وقد أوضح د. عز الدين إبراهيم أحد الباحثين الذين عاصروا الحوار الإسلامى المسيحى أنه كى يكون الحوار ناجحاً ومفيداً ومؤدياً لرسالته لابد من رعاية الشروط الآتية:

١- تبادل المعلومات والأفكار والحقائق التى تزيد من معرفة كل فريق بدين الفريق الآخر وتاريخه وحضارته، توضيحاً يعين على التلاقى على مواطن الاتفاق أو الاتفاق بطريقة مخلصة وموضوعية.

٢- البعد عن التلفيق الدينى بين أحكام الدينين سواء كان ذلك التلفيق

---

(١) قال ابن إسحاق: وفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده فأراد الناس منعهم فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم. انظر ابن هشام ١/ ٥٧٣-٥٨٤، وابن كثير فى السيرة ٤/ ١٠٠، ١٠٨ و١/ ٣٦٧-٣٧١ فى تفسيره وابن سعد فى الطبقات الكبرى ١/ ٣٥٧.

صريحاً أو رمزياً.

٣- العناية بحسن اختيار المتحاور بأن يكون متخصصاً فى الموضوع ليكون قادراً على التعبير الصحيح.

٤- حسن اختيار مواضيع الحوار والبعد ما أمكن عن حساسيات الفكر اللاهوتى الكلامى القديم الذى حفلت به كتب الملل والنحل.

٥- اختيار الموضوعات الحية مثل وضع الأقليات سواء كانت مسيحية أو مسلمة فى كلا المجتمعين الإسلامى والمسيحى وتبيين الحقوق والواجبات التى يعطيها كل دين للآخر.

ومما يعين على إنجاح الحوار وفتح المجالات الكثيرة له ما يلى:

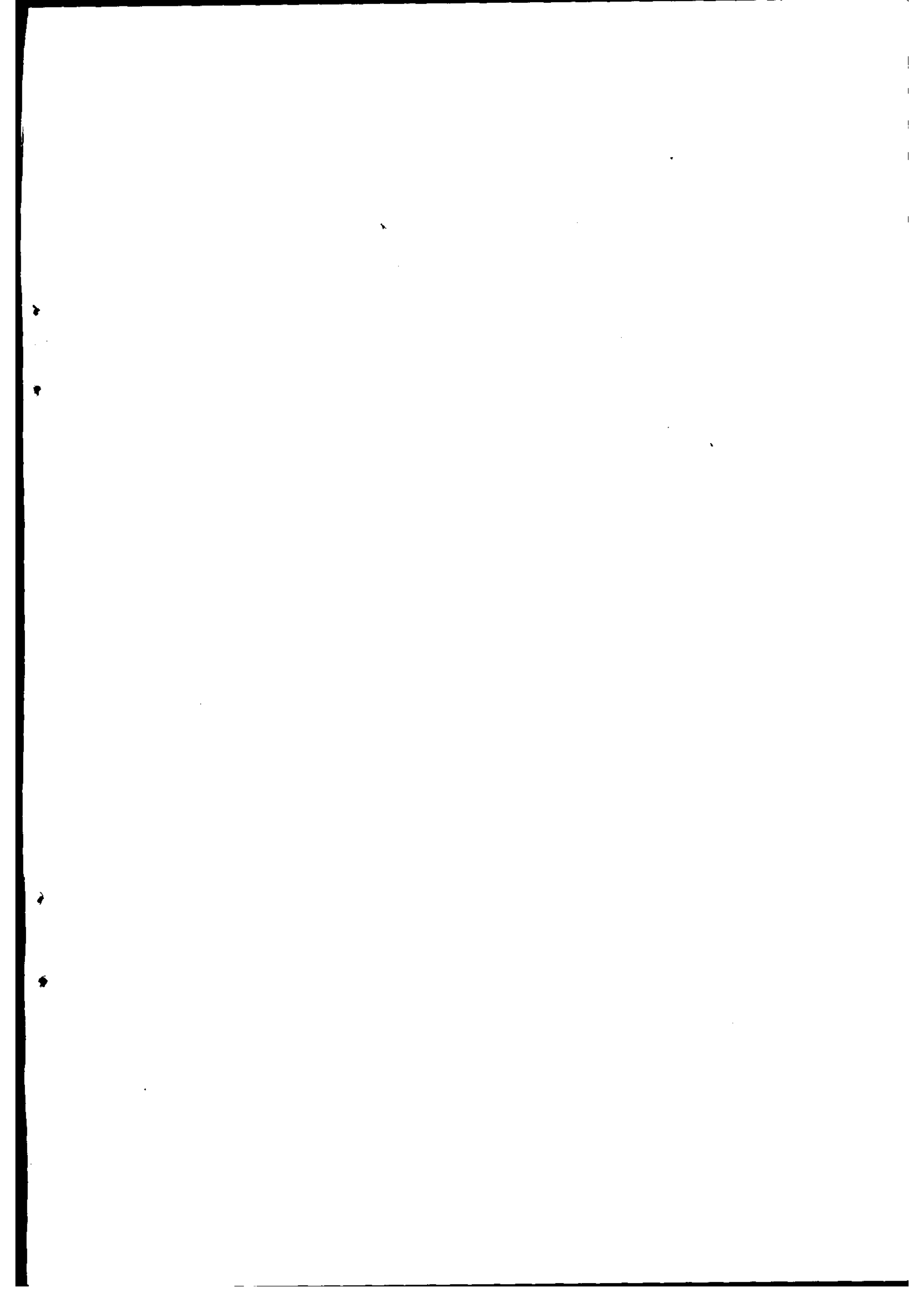
* تصحيح الصورة الخاطئة التى ألصقت بالإسلام والمسلمين لدى العقلية الغربية، وهذا ما أكدته آنا مارشل عميدة الاستشراق الألمانى فى مقدمتها لكتاب «الإسلام كبديل» عندما قالت: المرء عدو ما يجهل، فإن لوحات فنانى القرن التاسع عشر تسمى المسلمين «المحمديون» وتصفهم بأنهم إما برابرة غير متحضرين شاهرى السيوف، أو مترفين غارقين فى مجالس اللهو بين الحسان، أو فقيه ملتح متزمت، أو صورة إرهابى وقح لا وازع له.. ومسيحيو القرون الوسطى ظنوا أن الإسلام زندقة وارتداد عن الدين المسيحى، وشاعت الأسطورة التى زعمت أن محمداً لم يكن سوى كاردينال كاثوليكى خرج على البابا، وأنه شغل بإقامة الدولة وبزوجاته عن الوعظ والدعوة، وأنه ألف القرآن.

* إن تصحيح الصورة يقتضى تفهماً لتيارات التفكير فى الغرب والتوجه

إلى الشرائح التى تبحث عن علاج ما أصاب النفسية الغربية من دمار وتقديم الإسلام الصحيح لهم من خلال البلاغ الواضح المبين والتركيز على الجانب العقدى والتعبدى والروحى والأخلاقى، كما ينبغى السعى لتصحيح الأخطاء المبثوثة فى الكتب المدرسية عن الإسلام والمسلمين.

* العمل على إنشاء مراكز بحث ودراسات متخصصة فى جامعاتنا ومعاهدنا الإسلامية تعنى بقضية الحوار، وتعمل على الاتصال بالمراكز المماثلة لتقدم المعلومات الصحيحة.

* على المسلمين وعلمائهم بوجه أخص أن يبذلوا جهداً فى تبنى قضية الحوار، فهم الأمة الشاهدة على الناس بالدعوة، وأن يتخذوا الوسائل المكافئة لذلك بفهم نفسية المخاطبين، خاصة فَهْم الحضارة الغربية والحضارات الأخرى مثل الحضارة الصينية والمذاهب المختلفة فهذا ما فعله سلفنا الصالح، ويقدروا ظروف كل شريحة، وقد أصبح الإسلام موجوداً فى كل بقاع المعمورة، وأفلست الأيدلوجيات والمذاهب الأخرى وأصبحت الحاجة ماسة للإسلام، فهل ينهض المسلمون بواجبهم ويتقدمون للعالم بالخير الذى عندهم ، نسأل اللّه العون والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير.



المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٨٧٦٦ / ١٩٩٧ م

الترقيم الدولي
I . S . B . N . 977 - 265 - 168 - 8



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣